المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

جاكو الثائر



تأليف: يوجين لوروا

ترجمة وتقديم: حياة الشيمى

1254



المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١٢٥٤
- جاكو الثائر
- يوجين لوروا
- حياة الشيمى
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٨

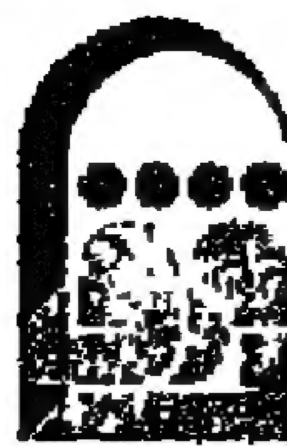
هذه ترجمة رواية:

Jacquou le Croquant
d' Eugène le Roy
© 2006 Hachette Livre

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ـ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

جاكو الثائر

تأليـــف: يوجـين لـــوروا
ترجمة وتقديم: حياة الشيمى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

لوروا، يوجين
جاكو الثائر (رواية) تأليف: يوجين لوروا، ترجمة وتقديم: حياة الشيمى، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨م.
ص ٢١٦؛ ٢٠سم
١- القصص الفرنسية
أ- الشيمى - حياة (مترجم ومقدم)
ب- العنوان
٨٤٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٧٦٧٩
الترقيم الدولى: 3 - 887 - 437 -977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إلى صديقى
السيد دوزولييه[1]

(1) السيد دوزولييه: سياسى فرنسى (١٨٣٦)، ولد فى دوردونى (بجنوب غرب فرنسا)، كتب مقدمة طاحونة لوفرو عام ١٨٩٥.

كلمة المترجمة

يوجين لوروا كاتب ثائر، عنيد، مؤيد للثورة الفرنسية التى أعلنت عام ١٧٨٩، وتعد رواية جاكو الثائر أهم أعماله، ففيها يطرح الكثير من أفكاره، يفضح الطبقة البرجوازية من خلال فضح أصل عائلة الكونت، ويقدم باستفاضة صورة دقيقة لحياة البؤس والحرمان التى كان يحياها الفلاحون فى فرنسا قبل الثورة.

حين تعرضت لترجمة الرواية كان أول ما شغلنى هو عنوانها، وكنت أمام أحد اختيارين إما أن أترجم الاسم: "*جاكو المتمرد*" وهو المعنى الحرفى للكلمة المستخدمة فى الفرنسية، أو "*جاكو الثائر*" وهو العنوان الذى استقررت عليه، كانت كلمة المتمرد أو العاصى توحى بأنه مجرد شخص متمرد، عاص لا ينصاع للأوامر العليا؛ وكان يستخدمها حينذاك البرجوازيون فى وصف ثورات الفلاحين التى كانت تحدث كثيرا فى سنوات ما قبل الثورة، فلم يكونوا فى نظرهم أكثر من متمردين، عصاة يجب تأديبهم. بينما كان جاكو أحد هؤلاء الفلاحين الثوار الذين كانوا بمثابة الشرارة التى أسهمت فى إشعال الثورة الفرنسية، بتفجير الغضب، وإثارة القلاقل ودفع المفكرين والمثقفين والطليعة الثورية إلى التحرك من أجل التغيير وإسقاط الحكم الملكى والتخلص نهائيا من سيطرة الطبقات البرجوازية

الطاغية وتحرير الفقراء وإشاعة العدل والأمان وتوفير حياة كريمة للجميع؛ تلك الأحلام البسيطة التى من أجلها قامت الثورة فى فرنسا وتقوم فى كل مكان، مطالب إنسانية عادلة كفلها لهم بعد ذلك الدستور الفرنسى ولخصها شعار الثورة المكون من ثلاث كلمات: الحرية، المساواة والإخاء.

حياة الشيمى

١

أقصى ما أتذكره هو عام ١٨١٥، العام الذى جاء فيه الأجانب إلى باريس، وحيث تم إرسال نابليون - الذى لقبه رجال قصر هارم "غول كورسيكا"- إلى سانت هيلانه، فيما وراء البحار. كانت عائلتى فى ذاك الوقت تستأجر فى كومبناجر، بنظام المشاركة مناصفة فى المحصول مع المالك، أرض ماركيز نانزاك الزراعية السيئة، على حافة غابة باراد، فى بيريجور[٢] العليا. كانت ليلة عيد الميلاد: كنت جالسا على دكة صغيرة بركن المدفئة، فى انتظار لحظة الانطلاق للذهاب إلى قداس منتصف الليل بكنيسة القصر، وكنت أتلهف بشدة على حلول الموعد. كانت والدتى تغزل التيل بمغزلها أمام النار، وبمشقة كبيرة تجعلنى أصبر بسرد حكايات لى. وقفت أخيرًا، ذهبت إلى عتبة الباب، نظرت إلى النجوم فى السماء وعادت فورا:

قالت: حان الوقت، اذهب يا بنى، اتركنى أعد النار من أجل عودتنا.

---

(٢) بيريجور: المنطقة الجنوبية الغربية بفرنسا، تشغل الجزء الأكبر من إقليم دوردونى. (المترجمة)

ثم بعد ذلك، لفّتنى بشال صوفى ردىء وربطته من الخلف، غطت أذنى ببونيه من التريكو، ومررت رمادًا ساخنًا فى خفى. أخيرًا، بعد أن أخذت غطاء رأسها البنى البدائى المصنوع من الصوف، أشعلت فانوسًا اسودّ زجاجه من الدخان، وأطفأت المصباح الزيتى الصغير المعلق بالمدفأة، ولدى خروجنا، أغلقت الترباس الداخلى للباب، بمفتاح معوج (شنكل)، وخبأته بعد ذلك فى فجوة بالجدار:

سوف يجده والدك هنا، هذا إن عاد.

كانت السماء ملبدة بالغيوم، مثلما يحدث قبل تساقط الثلوج، البرد ضبابى والأرض جليد. كنت أسير بجوار والدتى التى كانت تمسكنى من يدى، مرغمًا ساقى الصغيرين ذواتى السبعة أعوام على سرعة كبيرة للوصول، بينما كانت المرأة المسكينة تقيس خطوتها على خطوتى. ذلك أننى سمعتها تتحدث كثيرًا مع جارتنا ميون دى بيوماجر، عن المذود المصنوع كل سنة فى كنيسة هارم بواسطة آنسات نانزاك، حتى لا يفوتنى كل ما روته عنه. كانت أحذيتنا ترن بقوة فوق الطريق الصلب، المعبد وسط الأرض الرمادية والمضيئة قليلا بالفانوس الذى كانت تحمله والدتى.

أبعد قليلا، كنا قد تركنا الطريق الذى كان يسقط فى طريق ليموج بارجيراك القديم، قادما من الغابة، وسلكنا هذا الطريق لمدة

ربع ساعة، حتى الممر الكبير لقصر هارم. صعدت فى خط مستقيم إلى القصر المقام على قمة الجبل، حيث كانت الأسطح (الأسقف) المسننة، والأكاليل والمداخن العالية ترتفع سوداء فى السماء الرمادية.

بينما كنا نتسلق مع أناس آخرين قابلناهم على الطريق، بدأت الثلوج تتساقط بقوة، بحيث أصبحنا بيضًا تمامًا عند وصولنا إلى فوق؛ وهذا الثلج الذى كان يسقط متطايرا كأنه يقول للنساء الطيبات: "ها هو العجوز نويل يسلخ أوزاته". كان الباب الخارجى، المقوى بمسامير ضخمة لها رأس مسنن لكى تحفظه فى الماضى من ضربات الفأس، مفتوحًا هذا المساء، ويعطى منفذًا فى السور الدائرى المحاط ببركة واسعة يقع فى وسطه القصر.

فى داخل السور ذى الجدار الصلب وعلى يمين القصر، كنا نرى الزجاج الملون المشتعل يلمع لكنيسة لم يعد لها وجود؛ فتلت والدتى فانوسها ودخلنا.

يا للأضواء! فى مذبح الكنيسة، المحراب الحجرى القديم على شكل تابوت عليه زينة، وها هى تمت إضاءة المهد النضر المصنوع فى فتحة كبيرة بالنافذة. بعد التعميد بالمياه المقدسة، كان الناس يذهبون يركعون أمام المهد ويصلون ليسوع الطفل الذى يرونه راقدًا فى مذود على القش المنتشر مثل الذهب، بين بقرة مهمومة وحمار

أشعث كان يرفع رأسه لكى يلتقط البرسيم من المذود الصغير. كم كان جميلا!

كنت أتأمل بينهم كل هذه الأشياء الجميلة، مع الآخرين الذين كانوا هنا، فاتحين أعيننا تمامًا. ولكن كان علينا الخروج من المحراب المحجوز للسادة، إذ إن أجراس القداس كانت ترن.

دخل الجميع فى موكب. أولا الماركيز العجوز، مرتديًا على الطراز القديم لما قبل الثورة. يسحب بذراعه امرأته الجميلة، كونتيسة نانزاك، كانت سيدة بدينة تلبس شالاً مربوطًا حول رأسها، ومشدودة فى فستان من الحرير لونه بنى - أحمرغامق، حيث كان الحزام يرتفع حتى أسفل ذراعيها تقريبا.

ثم جاء الكونت، فى زى إنجليزى، بنطلون ضيق رمادى له شريط يمر من تحت القدم، يصحب ابنته التى كان شعرها قصيرًا ومجعدًا مثل المهرجة، رغم أنها كانت فى سن الزواج. بعد ذلك جاء صبى فى الثانية عشرة من عمره، وأربع نساء بين ستة وسبعة عشر عامًا، ومربية كانت تسحب الابنة الصغرى من يدها.

كان الجميع يمر فى صف، ينظر إليهم الفلاحون الخائفون بارتباك، وجلسوا على المقاعد المصفوفة فى المحراب.

وبدأ القداس - يلقيه راهب قديم من سانت- أموند- كولى، الذى كان مألوفًا فى القصر، واجدا الإقامة فيه جيدة، ومخدومًا من

السيد الشاب، الأشقر، المرتدى حذاء رقيقا جميلا عاريًا، ويرتدى بنطلونا رماديا فاتحا وبلوزة ملتصقة بالجسد لها أكمام وذيل يغطى الأرداف مصنوعة من المخمل الأسود، تسقط عليها ياقة مزركشة.

فى أثناء الصلاة، وضعت نساء القرية وشاحهن وانتظرن. لم ينزعج السادة: طبعا، أحضر لهم القس فورًا الرب أولاً. وبعد السادة، كان دور الخدم، راكعين عند الدرابزين الذى كان يغلق المحراب، السيد لابورى، الذى يدير الأرض لحساب المالك، فى المقدمة، بوجهه الصارم والماكر فى نفس الوقت. وبعد ذلك النساء المحجبات، الفلاحون، مزارعو القصر، عمال اليومية وفلاحون آخرون مثلنا. كان يلزم بشدة، لكل من كانوا فى خدمة الأسياد، المشاركة الروحية بالأعياد الجميلة، كانت تلك هى القاعدة؛ ومع ذلك لم تذهب والدتى فى تلك المرة؛ ولكنهم استطاعوا تأنيبها جيدا على ذلك فيما بعد.

انتهى القداس، وضع الدوم[٣] أنجلبار زينته الذهبية على ركن المذبح وانفتحت بوابة الدرابزين، وتم إدخالنا جميعًا إلى المحراب لكى نصلى أمام المهد. شدونا فى البداية بأغنية قديمة عن ميلاد المسيح، بدأها القس، ثم قدم كل واحد صلاته على حدى. كان كل هذا العالم راكعا ينظر بخشوع إلى المسيح الطفل الوردى، بشعره الذى

([٣]) دوم: لقب يمنح لبعض رجال الدين. (المترجمة)

بلون الكتان، ويتلو صلواته، عندما فتح فجأة ذراعيه، ونقل عينيه، وأدار رأسه وجعلهم يسمعون صراخ طفل وليد....

وصدرت عن هذا الجمع من الفلاحين المؤمن بالخرافات: "آهة!" ذهول وإعجاب مكتومة. اعتقد هؤلاء الناس بالطبع، أنه حدثت الآن شبه معجزة، ووقفوا ساكنين، عيونهم جاحظة، وأفواههم مفتوحة على أمل أن تبدأ المعجزة من جديد.

ولكن كان هذا كل شيء. عندما خرجنا فى الزحام، كان كل هذا الجمع يثرثر، يتبادلون الانفعالات. بالنسبة للبعض يراها معجزة، آخرون كانوا مرتابين، إذ يصعب إقناعهم. أشعلت والدتى فانوسنا فى المطبخ الذى كان بابه المفتوح يضىء تحت سلم البرج. بعد أن أشعلت والدتى فانوسها قدمت الشكر وألقت تحية المساء على من كانوا هناك. ولكن سيدتين فقط ردا عليها. أما رئيس الطهاة الذى كان يتجول، وهو يعطيهم الأوامر، متشامخًا مثل الديك الرومى، بسترته البيضاء وقبعته القطنية، لم يتنازل حتى بالرد عليها.

بعد الباب الأول، بعد أن عبرنا الجسر، لاميون دو بويماجر وآخرون كانوا ينتظروننا: أشعلوا قناديلهم من قنديلنا، وذهبنا جميعًا.

كان الثلج مازال يتساقط، "كأنه يلقى ريش أوز بملأ يده"، هكذا كانت تتكلم النساء البسيطات، وكان سمك الجليد قد أصبح قدما[٤]،

---

(٤) قدم: قياس قديم يبلغ ٣٢,٤ سم.

حيث كانت تغرز فيه أحذيتنا. بمجرد أن يبلغ الناس طريقهم، كانوا يتركوننا مودعين. كان هذا الجليد يضنينى بقوة، وبعكس الذهاب تماما، كنت مشدودا من ذراعى.

قالت والدتى: أنت متعب، اصعد على ظهرى.

وانخفضت، وتسلقت ممتطيا ظهرها، أحيط عنقها بذراعى الصغيرتين، بينما شدت بذراعيها ساقى للأمام.

فى هذه الأثناء، كانت والدتى تعانى بشدة من تتبع الطريق السيئ الضائع تحت الجليد. كانت تبتعد قليلاً أحيانًا، وبالتعرف عليه، كانت تعود فورًا، مسترشدة بشجرة، بباقة كبيرة من الجولق(*)، بركة ماء، متجمدة الآن. أنا، مهدهدًا من الحركة، ورغم البرد، أنتهى بأن أنام على ظهرها، وذراعى المخدرة من شدة البرودة تفك رغمًا عنى.

قالت لى: امسك نفسك جيدًا، سنصل إلى البيت بعد قليل.

ومع ذلك كنت أجد صعوبة فى البقاء مستيقظًا، عندما انفجر فجأة، أمامنا على بعد مئة متر، صياح شديد ممتد اخترق رأسى كأنه آلاف الدبابيس: "هو !...هو....هو... هو...."، ورأيت حيوانًا كبيرًا، كأنه كلب قوى، له أذنان مدببتان، كان ينبح هكذا رافعًا ذيله نحو السماء.

(*) الجولق: نباتات شائكة لها زهور صفراء. (المترجمة)

تقول لى والدتى: لا تخف.

وأعطتنى الفانوس، وخلعت خفيها، وأمسكت واحدًا فى كل يد وسارت مباشرة إلى الحيوان، وهى تقذفهما واحدًا تلو الآخر بضجة كبيرة. لا يجب قول ذلك، ولكن حينها، كنت أتمنى بشدة أن أكون راقدا بجوارها، فى السرير الدافئ. عندما أصبحنا على بعد خمسين خطوة، ألقى الذئب بنفسه فى الأرض البور بعدة قفزات، وعبرنا، نراقبه خلسة، دون أن نراه مع ذلك. ولكن بعد لحظة، ارتفع نفس العواء الشرس من خلفنا: "هو! هو.... هو....هو...."، مما أفزعنى أكثر، إذ بدا لى أن الذئب أصبح فوق كعوبنا. من وقت لآخر كانت والدتى تستدير، مصدرة ضجيجًا بقبقابيها، لكى تخيف هذا الحيوان الحقير؛ ولكن لو أن ذلك كان يمنع الذئب من الاقتراب كثيرًا، فهو لم يمنعه من تتبعنا من على بعد ثلاثين خطوة، حتى أسوار فنائنا. بعد أن أخذت المفتاح من المخبأ، إذ إن والدى لم يكن قد عاد، حرّكت والدتى الترباس من الداخل وأغلقت الباب خلفنا بقوة.

بدلا من النار التى اعتقدنا أننا سنجدها، كان الحطب فوق الشواية أسود تمامًا، مطفأ.

صرخت والدتى: آه! هذا نذير شؤم! ستحدث لنا كارثة!

بالتقليب تحت الرماد بجذع، وجدت بعض الجمرات ألقت عليها حزمة صغيرة من الخشب، الذى اشتعل سريعا تحت رياح الأنبوب الحديد الذى وضعته فى فمها.

قالت لى والدتى: يجب أن تذهب إلى السرير.

أخذتنى على ركبتيها ونزعت عنى ملابسى فى حركة واحدة. رقدت فورًا، ونمت دون التفكير فى أى شىء.

عندما استيقظت، فى اليوم التالى، كانت والدتى تحمى النار تحت الحلة التى كانت تطهو فيها الحساء، وكان والدى يفرز على المائدة العصافير التى اصطادها فى الليل. يحدث ذلك، بينما كانت والدتى تقطع الخبز، وتغلى الحلة وتخلط الحساء. كان الوقت مبكرا، حوالى الساعة الثامنة، ولكن والدى كان يريد الذهاب إلى مونتينياك[٦] لبيع عصافيره. وضعت والدتى وعاء الحساء على المائدة وغرفت لنا أولا، أنا ووالدى، ثم لنفسها بعد ذلك، وشرعنا فى الأكل بشهية، لجوعنا نحن الثلاثة وخاصة أبى الذى أمضى الليل كله تقريبا فى الخارج.

قالت له والدتى: يجب أن تحضر لى قبقابًا، فقد كسرت قبقابى وأنا أخيف هذا الذئب الشرير.

---

(٦) مونتينياك: المكان الرئيسى لكونتون على بعد ١٦ كم من قصر *هارم*.

سأحضره لك، على أن أبيع العصافير، إذ بخلاف ذلك لا أملك مليمًا.

وأخذ قطعة عود صغيرة من فرشاة المكنسة، ووضعها فى قبقاب والدتى القديم وقصها بالضبط على مقاس الطول. ثم أخذ حقيبة ظهره ووضع المقاس داخلها، أنزل البندقية من فوق المدفأة، وذهب، تاركا كلبتنا التى كانت تريد مع ذلك أن تلحق به بشدة:

سوف تضيعى هناك، فى مونتينياك.

عاد والدى من مونتينياك فى حوالى الساعة الرابعة؛ عند دخوله، نفض نفسه، إذ كان أبيض تمامًا، كان الجليد مازال يتساقط، ووضع بندقيته فى ركن الموقد. ثم بعد أن خلع حقيبته عن ظهره، أخرج منها زوجا أصفر من القباقيب، من خشب شجرة جار الماء(٧)، ووضعه على الأرض، وضعت أمى قدمها فى القبقاب وقالت:

يناسبانى تمامًا. كم كلفاك؟

اثنى عشر مليمًا(سو(٨))…. وستة فلس (ليارد(٩)) لمسمرته بالحديد، يصبح المجموع ثلاثة عشر مليما ونصف. بعث العصافير

---

(٧) شجرة جار الماء: شجرة أوروبية تنمو فى المناطق الرطبة، هى شجرة المياه الراكدة والداكنة. نوع من أنواع الخيزران. (المترجمة)

(٨) سو: عملة فرنسية تساوى واحد على عشرين من الفرنك أو خمسة سنتيم، فى كندا سنت.

(٩) ليارد: عملة فرنسية قديمة من النحاس تساوى ربع سو.

بستة وعشرين مليمًا، اشتريت قطعة جاتوه (شعبى) من أجل جاكو، يتبقى لى إحدى عشر مليما وفلسين: خذيهم.

أخذت والدتى النقود ووضعتها فى درج الخزانة.

بينما أخرج والدى الجاتوه من جيب سترته الداخلى، وأعطاه لى. قبلته، وشرعت فى أكل هذا الجاتوه الريفى، بعد أن حملت قطعة منه لوالدتى، التى لم تكن تريد أخذها:

- كلا، يا صغيرى، كلها أنت.

آه! ما ألذه! كنت قد تذوقت من قبل الفطيرة بالبرقوق، ومرة أخرى فطيرة باللوز المطحون والسكر، ولكننى لم آكل شيئًا أروع من هذا الجاتوه الأول.

استمر هذا الطقس الجليدى السيئ عشرة أيام بدت لى أطول.

وأخيرًا، جاء الذوبان، وظهرت الأراضى الرمادية، المبتلة، تاركة القمح الأخضر الذى كان يبرز فى الأراضى المزروعة مرئيا. عندما جفت الأرض قليلا، أخرجت والدتى النعاج، إذ كانوا قد أكلوا الفروع الجافة التى جمعناها لهم من أجل الشتاء وتبننا القليل انتهى تقريبًا. اصطحبتنى معها، نسوق ماشيتنا نحو تلال جريار الصخرية، حيث كانت تنمو أعشاب صغيرة رقيقة كانت تحبها كثيرا. كنا بعد الظهر. كانت شمس الشتاء الشاحبة تضيء بحزن الأرض الجرداء، وريح صغير يصفر أحيانًا، بارد كثلوج مرتفعات أوفارنى التى يمر

عليها. أكثر من ثلاث ساعات، بينما كنت أقضم ثابتا قطعة خبز أحضرتها والدتى، إذ بنعاجنا، خائفة من كلب، يعودون نحونا بسرعة شديدة ويتخطونا محدثين ضجة كبيرة.عند قيامها لإعادتها، رأت والدتى حارس هارم اسمه ماسكريه، صاح فيها لتقف. عندما انضم إلينا، بلا أى نوع من التحية، قال لها: اذهبى أولا إلى القصر، حيث يريد المدير مخاطبتك.

قالت والدتى: ولماذا يريدنى بهذا الإلحاح؟

لا أعلم شيئا عن هذا، ولكنه يؤكد على ذلك.

وانصرف الحارس.

كنا ناحية النعاج التى انتشرت على بعد مئتى خطوة، مازالت تنظر للكلب الذى أفزعها، ثم، دفعناهم أمامنا ونزلنا التل، عدنا إلى كومبوناجر، ومنها توجهت والدتى إلى هارم، بعد أن حبست الحيوانات فى الزريبة.

عندما عادت، فى الليل، سألها والدى:

وماذا كان يريد منك هذا العجوز الوغد؟

آه! هاك....أولاً، أنبنى لعدم تقديم فروض الطاعة والولاء ليلة الكريسماس، مثل الآخرين، ولا حتى أنت، الذى لم يذهب إلى القداس منذ فترة، لذا لم تكن السيدات راضيات بالمرة، وكلفنه بإخبارى به.

بعد ذلك قال لى إنك تصطاد دائما دون إذن، بحيث إن سيدى الكونت لم يعد يجد نعاجًا فى منطقة كومبوناجر، وبأنه حذرك لتكف ولتتخلص من كلبتنا. وأخيرًا، أضاف أن علينا أن نغير تماما من سلوكنا، وإلا سيطردنا السادة.

صرخ والدى: آه! الخبيث! إذا يوما وجدته وسط الغابة، من هنا بين الجرانفال والجرو- مورتييه، سوف يقضى ربع ساعة سيئة!

قالت والدتى: اهدأ، سوف تقع لنا مشكلات، تـعرف جيدا أنه لا يوجد خطر من أجل ذلك.

لم يرد والدى وأخذ ينظر للنار.

بعد حوالى خمسة عشر يوما من هذه المحادثة، بينما كانت والدتى تفرز فاصوليا لوضعها فى الحساء، إذا بالسيد لابورى يجىء إلى كومبوناجر. دخل، قائلا "صباح الخير"، وهو ينظر إلىَّ من الجانب، وسأل عن مكان والدى.

ردت والدتى: ذهب ليقطع الأشجار.

قال: أو ليصطاد دون إذن، بالأحرى، وهذه الأبقار، هل تكبر؟

عند قوله ذلك، كان قد أصبح فى الصومعة. أمسكتنى والدتى من يدى ولحقنا به. عندما رأى السيد لابورى الأبقار، قام بإخراج

النعاج من الزريبة وهمس من بين أسنانه وهو ينظر إليهم، معتقدا أننى لم أنتبه:

- حسنا أنت لا تريدى أن تتعقلى؟ أحضرت لك منديل رأس جميل من بيريجو، قولى؟......

لم تجبه والدتى، بعد أن التفتت ورأت السيد لابورى يغادر، قائلا دائما بنفس النبرة:

سوف تندمين على ذلك! سوف تندمين!

بعد الغد، فى أثناء تناولنا الحساء، حوالى الساعة التاسعة، زمجرت الكلبة من تحت المائدة، والحارس ماسكريه، وصل، وقف أمام عتبة الباب:

يبلغكم السيد لابوريه، بأمر من السيد الكونت، أن عليكم أن تتخلصوا من كلبتكم فورا، لو وجدناها مازالت هنا، سوف يأمر بقتلها.

قال والدى: ليحفظ الله سيدى الكونت، والذى بعثك بهذه الرسالة! وهو يشد على يديه وينظر إلى ماسكريه، بعيون يملأها الغضب؛ – وأنت، لا تفعل شيئا، وإلا ستحدث نكبة!.

ومع ذلك، لو أنهم أمرونى بذلك، يجب على الطاعة، قال الحارس؛ لو كنت مكانكم لبعت الكلبة.

يؤكد سيدى الكونت، أنه بموجب القوانين القديمة، لا يحق للفلاح اقتناء كلب صيد.

حسناً، قال أبى، بلغهم فقط بما قلته لك.

مرت لحظة صمت بعد انصراف ماسكريه، ثم قالت والدتى:

مسكينى مارتيسو، الأفضل أن نبيع الكلبة، كما قال الحارس؛ موثق لاودوز طلبها منك عدة مرات، خذها إليه؛ سوف يعطيك على الأقل أربعة أو خمسة إيكو[١٠] ربما، بما أنها جيدة فى ملاحقة الأرانب البرية.

رد والدى: لا أريد أن أبيعها!.

إذن خذها عند ابن عمك في ساندريو؛ حتى نرحل من هنا، إذ لم يعد فى إمكاننا البقاء؛ قد يحدث شيء.

قال والدى مختنقاً: معك حق يا امرأة سوف أصحبها يوم الأحد القادم.

يوم السبت، بينما كان والدى يربط الحيوانات لكى يذهب لإحضار عشب، حضر شخص قبيح الوجه يمتطى جوادا إلى كومبو*نا*جر، دخل الفناء وتوجه إلى والدى:

---

(١٠) إيكو: عملة فرنسية قديمة الواحدة تساوى خمسة فرنكات من الفضة.

قال: هل أنت السيد *مارتيسو* العاصى[١١]، المستأجر لدى السيد *نانزاك*؟

- أنا.

- إذن، هاك أمر بالطرد من المزرعة.

وسلم ورقة إلى والدى.

هو، أخذها ومزقها فى ألف قطعة ورماها فى وجه الوكيل.

- قال الآخر ساخرًا: كل هذا سوف يدفع.

وذهب سريعًا، لأن والدى كان قد أمسك مهمازه بعنف قليلا، بحيث بدا أنه سيستخدمها فى إعطاء ضربة للوكيل وليس لدفع ماشيته.

منذ أن تسلمنا هذا الأمر بالخروج، وبعد أن أصبحت الكلبة فى *ساندريو*، صارت والدتى أكثر هدوءًا. كانت مسألة شهور، وفى *سانت جان*[١٢]، سوف نترك هذه المزرعة السيئة؛ حيث كدنا نموت من الجوع، وخاصة أننا لن نتعرض أبدا لهذه التصرفات السيئة من

---

(١١) لقب كان يعطى لفلاحى بيريجور الذين ثاروا فى ظل حكم هنرى الرابع ولويس الثامن.

(١٢) سانت جان : ٢٤ يونية، التاريخ الذى تنتهى فيه العقود.

قبل هذا السافل *لابورى*. ولكن عندما تكون هناك نكبة فى الطريق، يجب أن تصل: ذات ليلة، سمعنا خربشة على الباب مع نباح خفيف.

– إنها الكلبة، قال والدى فى أثناء ذهابه لفتح الباب؛ رغم أننى قلت لابن عمى أن يحبسها ويربطها عدة أيام.

دخلت الكلبة، تجر طرف حبل كانت قد قطعته بأسنانها، وقفزت خلف والدى وهى تنبح بسعادة.

لم تنم والدتى بقية الليلة، مضطربة من هذا الحدث، كأنها تشعر باقتراب وقوع مكروه. فى الصباح، حوالى الساعة التاسعة، كنا قد انتهينا من احتساء الحساء، عندما خرجت الكلبة فجأة وهى تنبح وبعد ثانية سمعنا طلقة بندقية وارتدت بعض الشظايا بالباب المفتوح، إلى داخل المنزل، أصابت إحداها أمى فى جبهتها، فأطلقت صرخة، قفز والدى إلى بندقيته، أبعد والدتى التى أرادت منعه، وركض للخارج. رأى أمامه الكلبة ممددة، ميتة، يخرج الدم من فمها، وفى المدخل *لابورى* الذى رد للحارس بندقيته الفارغة.

– آه! أيها السافل! لن تؤذى أحدًا بعد اليوم!

وقبل أن يحلم الآخر بأن ينجو بنفسه، أسند والدى بندقيته إلى كتفه وأرداه ميتًا.

بيـــنما كان *ماسكريه*، شاحبًا بل هو نفسه ميتًا أكثر منه حيًا، لا يعرف أين مكانه، جاءت والدتى فورًا مولولة.

– آه! *مارتيسو*، ماذا فعلت!

– هو الذى بدأ، رد والدى؛ كان لابد أن يحدث هذا حتمًا.

ساعدت والدتى الحارس فورا فى سند *لابورى* إلى كومة قش، لكى تقدم له العون، ولكن بلا فائدة، دخل والدى إلى البيت، أخذ حذاءه، وقبعته الصوف الكبيرة، وعلق حقيبة ظهره، ووضع فيها كسرة خبز، بوقة، حقيبة ذخيرته، قبّلنى، خرج، بندقيته فى يده، وانطلق نحو الغابة.

أنا، خرجت أيضًا، غير راغب فى البقاء وحدى، وانضممت إلى والدتى التى كانت تنظر ببؤس للجسد المسجى. خلع الحارس صديريته وفك أزرار قميصه لكى يتفحصه، وفى منتصف صدره، فى الشعر الأحمر الكثيف، صنعت الطلقة تقريبًا كرة، وكان الجرح الفظيع ينزف.

فى هذه الأثناء، جرى *ماسكريه* إلى *هارم*، ونشر فى طريقه الخبر، بحيث وصل الناس سريعًا. كان أول من جاء زوج *ميون دى بويماجر*، نظر بهدوء إلى الميت وقال:

– أشفق على *مارتيسو* وعليكم أيضا؛ أما هذا الوغد فلا أشفق عليه بالمرة؛ لم ينل إلا ما استحقه مائة مرة!

وكل الفلاحين الذين جاءوا من هذه الأنحاء قالوا نفس الشيء: "لم يسرقه!" أو: "إنه ليس أكثر من نذل!" وأشياء أخرى من هذا

القبيل. ولكن بعد قليل جاءت حاشية كبيرة، كونت دى نانزاك على جواده، مع خادمه الخيال المسئول عن قيادة الكلاب فى أثناء الصيد، و*السير انجاليرت (الدوم)* الذى لم يكن يجيد ركوب الخيل فتعلق بسرجه: حينئذ صمت الجميع. نظر الكونت إلى الجسد برهة، ثم سأل والدتى كيف حدث ذلك. بعد أن قالت إن والدى أطلق النار على *لابورى*، من شدة غضبه لأن شظية جرحتها وكلبته قتلت، نظر السيد دى نانزاك إلى الحيوان المسكين ممددًا بوسط الفناء ونقل عينيه إلى وكيله المتوفى، لم يقل شيئًا. كان ينظر لجسد *لابورى* ببرود، كأنه ينظر إلى ذئب أردته كلابه. بعد لحظة، لدى وصول رجاله، أمر بوضع الميت على نقالة كانوا قد أحضروها، ورحل الجميع.

فى اليوم التالى.. جاءت الشرطة تستجوب والدتى عن الطريقة التى وقع بها الحادث. أصابنى بخوف كبير هؤلاء العسكر بسيوفهم المعلقة بأحزمتهم الصفراء وغداراتهم المربوطة بالسرج. وأيضا فى أثناء وجودهم هنا، واحد على جواد فوق المقعد، يستجوب والدتى، والآخر واقفا متكئًا على سيفه، كنت صغيرا جدا فى ركن. بعد أن قصت عليهم كل شيء، قال الأكبر:

– كل هذا جميل، ولكن أخبرينا الآن أين زوجك؟

أجابت والدتى: لا أعلم، ولكننى سأعرف رغم ذلك، طبعا تعلمون جيدا أننى لن أخبركم.

-يستطيع أن يطبخك! انتبهى! لنرى، هل عاد إلى هنا هذه الليلة؟

- لا.

- ومع هذا، أبلغونا بذلك.

- إذن، فقد خدعوكم.

أخيرًا، بعد أن أرهقوا والدتى، ضاغطين عليها بالأسئلة، على أمل أن تنهار، وفى محاولة غير مجدية لإفزاعها، ذهب الشرطيون، بسعادتى الكبيرة.

فى المساء، حوالى الساعة العاشرة، جاء يطرق الباب صانع فحم (فحّام) كنا نعرفه، إذ قدمنا له الحساء عدة مرات. ارتدت والدتى ثيابها سريعا لتفتح له بعد أن أعلن عن نفسه، وحينها قال لنا إن والدى أرسله ليستعلم عن زيارة عساكر الشرطة. وأضاف أن لاداعى للقلق عليه، حيث إنه ينام فى كوخ مهجور، فى أكثر مناطق الغابة كثافة، فى منخفض ملىء بالأشجار الشائكة والجولق، بين *لافوكودى* وبحيرة *فيال*، حيث لا يستطيع الشيطان نفسه أن يجده.

هو يحتاج فقط لمعطفه المصنوع من صوف الماعز لكى يتغطى فى الليل.

بعد أن أعطته والدتى معطفه القديم ونصف رغيف مستدير، حملت والدتى الفحَّام أيضا بالكثير من الكلمات اللطيفة من أجل زوجها، بعد ذلك أعطانا ظهره وذهب.

استمرت هذه الحياة فى الغابات عدة أسابيع. أحيانا فى هذا الجانب، أحيانا فى جانب آخر، لم يكن والدى ينام قط ليلتين متتاليتين فى نفس المكان، فى نفس الكوخ. كان قد مر شهر، تقريبا، على وجود والدى فى الغابات، عندما كلف الكونت دى *نانزاك* حراسه بأن يعلنوا فى القرى، المحيطة بالغابة، أنه سيدفع اثنين لوى[١٣] من الذهب لمن يساعده فى القبض عليه. وبما أنه كان يشك فى أن *جان* الفحام يقابل كثيرًا "هذا الخبيث *مارتيسو*"، وكان يساعده على المعيشة، عرض عليه خمسة لوى.

رد جان على الحارس الذى كان يتوسط فى الموضوع: اسمع، *ماسكريه*! أنا لا أعرف مكان *مارتيسو*، ولكننى رغم ذلك سأعرفه، ليس من أجل خمسة لوى، ولا عشرين، ولا من أجل مائة سأبيعه. قل هذا لسيدك، ولا تأتى أبدًا لتكلمنى عن مثل هذه القذارة.

ولكنهم فى النهاية عثروا على خائن. كان يوجد فى *موروزى* رجل فقير اسمه *جانسو* الذى كان يعمل، طول العام، كعامل زراعى

---

(١٣) لوى: عملة فرنسية من الذهب تزن ٦,٧٠ جرام عليها صورة لويس الثامن وخلفائه. (المترجمة)

باليومية فى قصر *هارم* . كان لهذا *الجانسو* خمسة أطفال، كلهم صغار، أكبرهم يبلغ تسعة أعوام، كانوا يسكنون مع والدتهم فى مسكن سيئ إيجاره ٢ إيكو فى العام، أما هو فكان ينام طوال الأسبوع فى مخزن غلة، حيث كان يعمل. فى العادة كان لا يعود إلى *مورروزى* إلا مساء السبت ويرجع إلى عمله صباح الاثنين.

فإلى هذا *الجانسو*، حسب أوامر الكونت، توجه خادم السيد، الذى كان يحل محل *لابورى* حاليًا. الشيطان المسكين أظهر فى البداية بعض الصعوبة، قائلا إنه لا يعلم بالمرة مكان *مارتيسو*؛ ولكن عندما هدده الآخر بألا يعطيه عملا وأخبره عن قطعتى اللوى الذهب، التى يستطيع أن يكسبها بيسر بمراقبته عن طريق ابنه البكر الرذل، قال له إنه سيفعل.

فى هذه الأثناء، كان الكرنفال[١٤] وشيكًا، ورغم أننا فى العادة نبتهج به، فإن والدتى كانت ترتقب قدومه بخوف، لعلمها جيدا أن زوجها يتمنى أن يقضيه برفقتنا، وخشية أن ينتهزوا الفرصة للقبض عليه. لهذا طلبت منه، عن طريق *جان* ألا يحضر فى ذاك المساء، وأنه من الأفضل الانتظار لليوم التالى، لعلمها أنهم لن يرتابوا فى شىء يوم الأربعاء بعد انتهاء الاحتفال.

---

(١٤) الكرنفال: احتفال دينى. أيام المرافع التى تسبق الصوم الكبير، تبدأ من عيد الغطاس (المترجمة)

ابن *جانسو*، الذى أعطى والده الكلمة، معتقدا هو أيضًا أن *مارتيسو* يريد أن يقضى العيد فى بيته، كان قد اختبأ، ليلة الثلاثاء (آخر أيام المرافع)، بين الأشجار بجوار تقاطع "*الرجل الميت*"، لكى يتجسس عليه. عند هبوط الليل، سمعه قادمًا من داخل الغابة، واندهش حين رآه يأخذ طريق *لاجرانفال* بدلا من الطريق المؤدى إلى *كومبوناجر*. راقبه من بعيد، حافى القدمين، دون أى ضوضاء، رآه يدخل المنزل حيث كان مدعوًا.

كان عند أسرة شجاعة حالهم ميسور كانوا مزارعين فى ضيعة عائلة كاهن *فانلاك*. فى العشية، تألمت المرأة عندما فكرت أن المسكين *مارتيسو* لن يجرؤ على الذهاب إلى بيته، وسيحتفل فى البرارى مع بعض قطع الخبز، فطلبت من زوجها دعوته.

بمجرد إغلاق الباب، ركض الصبى يخبر والده، الذى جرى إلى القصر يخبرهم أن مارتيسو كان عند *لورى، دى لاجرانفال*. رحل على الفور رجل على حصان يخبر رجال الشرطة، الذين تركوا عشاءهم وجاءوا بغاية السرعة.

على بعد مائة خطوة من *لاجرانفال*، أعطوا خيولهم إلى *جانسو* الذى كان ينتظرهم، وبضجة خفيفة، بمساعدة حرس *هارم*، حاصروا المنزل. كانت الساعة حوالى الحادية عشر مساءً، كل من كانوا

موجودين احتفلوا جيدًا وغنوا بينما كانوا يتبادلون الأنخاب بالنبيذ المطبوخ[١٥]، عندما دفع شرطيان الباب بعنف ودخلا.

كانت مفاجأة كبيرة، كما هو متوقع. بينما صرخ كل واحد، أسرع والدى إلى بندقيته التى كان قد وضعها فى الركن؛ ولكنه اكتشف أنها نقلت ووضعت على السرير بسبب طفل شقى كان يريد أن يلعب بها. لذلك انطلق نحو النافذة وقفز منها رغم الشرطيين اللذين كانا يريدان الإمساك به، وسقط فى أيدى اثنين آخرين كانا يحرسانها. وفى لمح البصر، تم ربط يديه خلف ظهره، بينما كانت زوجة *رى* تبكى وتنتحب، قائلة بصوت مثير للشفقة:

-آه! مسكين يا *مارتيسو*! أنا السبب؛ سامحنى، كنت أعتقد أننى أفعل شيئًا جيدًا!

- صاح بينما كانوا يجرونه: كلا، كلا، *كاتيسو*، أنت امرأة طيبة، وأسرتك شجاعة، ولكن أحد الخونة باعنى. الوداع للجميع، وشكرًا!.

عند وصولهم إلى المكان الذى كانت فيه الجياد، رأى والدى *جانسو* الذى كان يمسك بها.

---

(١٥) النبيذ المطبوخ: خمر يغلظ بتبخير جزء من عصير العنب غير المختمر، فاتح للشهية.

- آه! إذن أنت الذى باعنى، ياندل!... لو أننى خرجت في يوم ما، كن واثقًا مما سأفعله بك!

وحينذاك، كان العساكر يربطون حبلا فى رقبته، كان يمسكه أحدهم فى يده؛ ثم، امتطى الجواد، وضعوا السجين بينهم وجروه.

لم تحمل هذه النذالة السعادة *لجانسو*. بمجرد أن حصل على قطعتى اللوى، هو الذى لم يكن قد رآها قط، اعتقد نفسه ثريًا. ولكنهما لم يبقيا طويلا، لأن مدير القصر الجديد عين عمالا جدد فى المجالات الاحتياطية، بحيث لم يعد لديه عمل له على الإطلاق. فى البلاد، لم يكن أحد مهتما بتشغيله، بسبب تصرفه السيئ؛ وهكذا، سرعان ما أكل قطعتى العملة الذهبية، فأخذ هو وأسرته خراجهم واختفوا. مازال للآن فى هذه الأنحـــاء حين نريد أن نتكلم عن رجل لا نفتخر به، نقول: "خائن مثل *جانسو*".

بالنسبة لى، كانت نذالة، دون شك؛ ولكننى أرى أن من دفعوه، بالمال والتهديد، للقيام بهذه النذالة، أكثر بؤسًا منه مائة مرة.

٢

ما يجب أن يحدث يحدث. عند معرفتها بإيقاف زوجها، أخذت والدتى نفسًا عميقًا، كأنها تحتضر:

-أوه! زوجى مارتيسو المسكين!

أنا، أخذت أبكى، وظللنا طوال اليوم نحن الاثنين محزونين ومــتألمين. كانت تجلس على دكة صغيرة، يداها مضمومتان على ركبتيها، تنظر بثبات أمامها دون أن تنطق بكلمة، وأتتها فكرة بغاية الخطورة فأفلتت منها آهة:

-زوجى المسكين، ماذا سيحدث لك؟

لم تكن تلك نهاية آلامنا. فى اليوم التالى، جاء كبير خدم القصر يخبر والدتى أنها لم يعد فى إمكانها تشغيل المزرعة بمفردها، ولذلك علينا أن نرحل فورًا، لكى نترك البيت لمن سيحل محلنا، بسبب العمل المعطل منذ شهرين تقريبًا.

ما العمل؟ أين نذهب؟ لم نكن نعرف. بعد أن بحثت فى رأسها تذكرت رجلاً من *سانت-جيراك* كان لديه فى الغابة معمل قرميد (مصنع طوب صغير)، مهجور منذ زمن، نستطيع أن نسكن فيه، إذا وافق. فى صباح اليوم التالى، مبكرا، أنزلت تبنا من المخزن،

وأعطت منه للأبقار، واحتفظت بكومة منه لتضعها لهم فى المذود عند الظهر. ثم بعد أن ألقت قليلا من العشب إلى النعاج، دخلت المنزل، قطعت لى قطعة خبز لليوم، وبعد أن قبلتنى، ذهبت إلى صاحب معمل القرميد وهى توصينى بعدم الابتعاد عن المنزل.

فى حوالى الساعة الخامسة، عادت دجاجاتنا الأربع من الأرض حيث كن يبحثن عن طعامهن، وبعد أن تخلصن من قملهن قليلا، قررن واحدة تلو الأخرى صعود سلم حظيرتهن الصغير. انخفض ضوء النهار، وكنت قد بدأت أقلق لعدم عودة والدتى، حين تعرفت مع ذلك أذنى – المعتادة على السمع من بعيد من تأثير الحياة فى الهواء الطلق – على خطوة والدتى المسرعة قادمة من جهة الغروب. ركضت لمقابلتها، وقبلتنى بقوة، كأنها اعتقدت أنها فقدتنى؛ ثم دخلنا نحن الاثنين فى البيت الأسود.

قال الرجل صاحب معمل القرميد لأمى إنها تستطيع أن تذهب للإقامة في المعمل، وإنه لن يطلب منها شيئا، ولكن المنزل كان فى حالة سيئة. كان علينا قبل أن نرحل، أن نأخذ رجلا لكى يقوم بتقييم الحيوانات مع مدير *هارم* الجديد. تم التقييم، حسبت والدتى أن من حقنا عائدًا. أكثر من عشرة إيكو؛ ولكن عند تسديد الحساب اكتشفت العكس، أن علينا أربعين فرنكًا، كما قال لها الآخر. سجل *لابورى* علينا نصف جوال قمح لم تكن والدتى تعلم عنه شيئا؛ لم يحسب كل ثمن الخنزير الذى بعناه فى *تيلون* وأيضًا أغفل تسجيل ثمن الثلاث

نعاج الذى أعطاه له والدى. يجب علينا إذن أن نترك *كومبونا*جر كأننا نحن المدينون للسادة.

جاء زوج *ميون* فى اليوم التالى ومعه عربته لكى ينقل أغراضنا. لم يكن كل هذا ثقيلا على الأبقار: سريرنا السيئ والخزانة الرديئة والمائدة والمقاعد والماجور وبرميل الخمر وحلة وإناء إعداد الفطير والمقلاة ودلو من الخشب وأشياء أخرى صغيرة، مثل الفانوس والملاحة الخشب. كل هذا الأثاث البائس لم يكن يساوى الأربعين فرنكًا التى كان مفروضًا علينا ردها لسادة *نانزاك*، بسبب قلة ذمة هذا *اللابورى* الذى ظل يؤذينا حتى بعد موته.

فى حوالى الساعة الثانية، بعد أن اجتزنا غابة، وصلت العربة إلى منطقة كبيرة بالغابة ليست بها أشجار ومحاطة بالغابات. فى الوسط، كان المعمل الذى سوف نقيم فيه. من بعيد، كانت مجموعة من الأسقف نصف محطمة، اسودت بفعل الزمن، ولكن عن قرب، كانت كتل من الأنقاض.

عندما حدقت والدتى بنظرها فى كل هذه الأشياء التعسة، انتابتها رجفة صغيرة، وأرجعت عينيها إلىّ. ولكن، بما أنها كانت امرأة لها قلب كبير، دخلت بثبات إلى المنزل حيث تبعتها، بينما زوج *ميون* فك حبل الحمولة.

يا له من منزل! كان منزل *كومبوناجر* عاريًا جدًا، كثير السواد، شديد الحزن، ولكنه كان برجوازيًا مقارنة بهذا. عندما دفعنا الباب، الذى لم يكن مغلقا إلا برزة، ظهر بكامل تهدمه بعد أن تأملت والدتى ذلك دون أن تنطق، خرجت لتساعد الرجل فى حمل الأثاث؛ لكى ينجزاه بيسر، تحرك هو بين الأبقار ورفع العريش، بينما كانت هى تخلع الوتد الحديدى الذى كان يمر فى الحلقات، وسحبت الأبقار. وضع الرجل حينئذ العريش على الأرض وعلى هذا العريش المائل، بمساعدة والدتى، قام بهدوء بجر السرير، والخزانة والباقى. وفى هذه الأثناء، قمت أنا بوضع مقطف العلف أمام الأبقار. بعد أن أصبح كل شىء فى المنزل أخرجت والدتى من سلة قطعة خبز ملفوفة فى منشفة، ثم وضعتها على المائدة مع الملاحة وبصلة أخذتها من الدرج. بعد ذلك، أرادت أن تملأ قدحا من الخمر، ولكن القليل الذى تبقى فى البرميل، بسبب الرجرجة، أصبح كالعجين: لذلك خرجت كى تحضر ماء. فى هذه الأثناء صنع زوج *لاميون* سندوتشا (من البصل والملح) وجلس على المقعد، كان يأكل ببطء، يقطع الخبز قطعا صغيرة، ويقرمش البصلة المغموسة فى الملح، حلقات صغيرة.

عندما انتهى، طوى سكينه، شرب نصف قدح من الماء ووقف. ساعدته والدتى فى ربط الأبقار، أخذ عصاه الطويل، رد على شكر والدتى له بأنه لم يفعل شيئًا، وألقى علينا تحية المساء واتخذ طريقه، ببطء عبر المنطقة الجرداء واختفى فى الغابات.

في المساء، بعد أن أكلنا اثنين أو ثلاثا من البطاطس المكمورة مع قليل من الملح، حين جاء موعد نومنا، رأت والدتى أنه لم يكن موجودًا قط قفل أو ترباس للباب. أغلقناه من الداخل بالطريقة القديمة، بعصا تمسك المصراع، عن طريق إدخالها فى ثقبين بكل جانب من الحائط. بعد ذلك، برت والدتى بالمنجل طرف خشب طويل وضبطته جيدًا، وهكذا أغلقته بشكل متين، وبعد ذلك ذهبنا إلى السرير.

أعتقد أنها لم تنم بالمرة فى تلك الليلة، معذبة بالتفكير فى والدى المسكين، السجين فى *بيريجو*، الذى تنتظره المقصلة أو الأشغال الشاقة. بالنسبة لى، لم أكن أرى كل عواقب الذى فعله، بعد أن نظرت قليلا للنجوم التى كنا نراها من السرير، من فتحة السقف، نمت نومًا ثقيلاً.

بالإضافة لأحزانها المتعلقة بوالدى، كانت والدتى معذبة أيضًا من التفكير بى وبما سيحدث لنا.

منذ اليوم التالى، انشغلت بالبحث عن عمل. *فى لوكو*، قال لنا عجوز كان يدفئ نفسه فى الشمس، مستندًا إلى جدار، إنها تستطيع أن تجد بضعة أيام من العمل فى حقول العنب أو فى استئصال أعشاب الذرة الضارة، فى *بويبوتييه* لدى رجل ثرى يدعى *جيرال*. عندما وصلنا إلى القرية، أرانا صبى منزلا كبيرا قديما حيث كان *جيرال*

موجودا فى هذه اللحظة. عندما قالت له والدتى، ردا عن سؤاله، إنها زوجة *مارتيسو*، فلاح كو*مبوناجر*، قالت الخادمة التى كانت موجودة: "أوه! القديسة العذراء!" ناظرة إلينا بطريقة غير ودودة . ولكن *جيرال* أسكتها، وقال لوالدتى إنه سيعطيها ثمانية سو[١٦] فى اليوم، وإنها تستطيع أن تبدأ من الغد.

هكذا شكرته، وقالت له إنها لا تستطيع أن تتركنى بمفردى فى معمل الطوب وسط الغابات، ورجته، إن لم يكن فيه إزعاج له، أن يسمح لها باصطحابى، وأن يدفع لها أقل، إذا أكلت أيضا.

– قال *جيرال* العجوز: حسنا، احضرى طفلك، الذى لم يبد عليه أنه رجل سيئ؛ وبدلا من ثمانية سوف أعطيك خمسة.

وهكذا فى اليوم التالى، ذهبنا فى ساعة مبكرة إلى *بويبوتييه*، وبينما كانت والدتى تجمع العناقيد فى الكرمة مع امرأة أخرى، كنت أنا ألعب فى المنطقة، مع ابنة خادمة *جيرال*، التى كانت تحرس النعاج والأوز وكان اسمها *لينا*. مضت هكذا اثنا عشر يوما وأنا ألعب مع لينا، فى ذات مساء بعد تناولنا الحساء، أعطى *جيرال* لوالدتى حسابها وقال لها إنه لم يعد فى حاجة إليها الآن. كان محرجًا قليلا عند قوله ذلك، مثل شخص يكذب؛ والحقيقة، أنه مازال موجودا ما يكفى من العمل. ولكن مما قالته لنا المرأة الأخرى التى كانت

---

(١٦) سو : عملة تساوى الجزء العشرين من الفرنك،١/٢٠ من الفرنك.

تعمل مع والدتى، إن الخادمة كانت تسبب له سلسلة من المشاكل بسببها، لكى يرتاح، طردها. أخذت والدتى قطعتى بثلاثين سو، وعقدتهم فى منديلها، وشكرت *جيرال* وبعد ذلك أصبحنا تعساء، هى قلقة من المستقبل، وأنا حزين لفراق *لينا*.

كان يجب فى اليوم التالى البدء من جديد فى مسح القرى المحيطة بالغابة بحثا عن عمل. استمر ذلك ثلاثة أو أربعة أيام، لم نوفق خلالها إطلاقًا، أنهكنا فى البحث عن عمل بلا جدوى ولم يعد لدينا الأجر العادى من عند *جيرال*، وذات مساء فى أثناء مرورنا على *جريمودى*، أخبرنا رجل بأن عمدة *بار* يأمرنا بالذهاب إليه حتما فى اليوم التالى.

وهكذا رحلنا فى الصباح، ووصلنا إلى الموقع حوالى الساعة التاسعة. كانت امرأة تفلى ابنها من القمل أمام الباب، وتقتل القمل على غطاء، أرتنا المنزل. بعد أن طرقنا على الباب، فتحته والدتى حين دعانا صوت غليظ للدخول.

كان كلب ركض، نحيف مثل عصفور أبو منقار، ينام أمام النار، قفز علينا وهو ينبح.

– اذهب! اذهب! صرخ فيه نفس الصوت الفظ، دون أن يستطيع إسكاته.

فى ركن المدفأة، على مقعد من القش، كانت توجد عجوز، عجوز جدا، تسند كوعيها على ركبتيها، رأسها يهتز، يمكن أن يكون عمرها مائة عام، وكانت تنظر إلينا بعين ميتة. العمدة كان موجودا أيضا، فى مطبخه، قدم على مقعد، يربط مهمازا فى حذائه، إذ كان يوم ثلاثاء، وكان سيذهب إلى سوق *تونون*.

بعد أن ربط مهمازه، رفس الكلب بقوة، الذى كان لايزال ينبح، مما جعله يختبئ تحت المائدة. أوضحت له والدتى أنها جاءت إلى هنا بناء على أمره، قال لها بجفاء:

– إذن، أنت زوجة *مارتيسو*؟

– أجل، يا سيدنا.

– هذا هو، يجب عليك أن تعودى إلى *بريجو* بعد خمسة عشر يوما من اليوم، بالضبط: سوف نحاكم زوجك. ها هو طلب الحضور! أضاف وهو يأخذ ورقة من على الرف.

– قالت والدتى فى الطريق: يا إلهى، ماذا سنفعل؟ ونحن عائدون.

جاء اليوم الذى يجب أن نرحل فيه، ربطنا فى أقصى عمق بطرف خيط سميك، أكثر قليلا من ثلاثة فرنكات فكة (مليمات

وفلسات) من السو والليارد[١٧]. وضعت والدتى بقية رغيف الخبز فى حقيبة ظهر والدى، التى ردها لنا *الراى* مع سكينه، وعلقته بحمالة على كتفها، وأخذت عصا حادة، ورحلنا بعد أن شبكنا الباب فى مسمار كبير بحبل لكى يبقى مغلقًا.

كنا قد تركنا قصر ***مكان- الرب*** على يميننا، عندما سمعنا خلفنا صوت جرس. حين استدرنا، رأينا عربة كبيرة جميلة يجرها أربعة جياد يقودها حوذيان يلبسان أحذية كبيرة برقبة (بوت)، وسروالاً أصفر، وصديرية حمراء، وزى ملوكى أزرق، وغطاء من المعدن للذراعين وقبعة من الجلد المشمع. توقفت بفضول لأرى هذه العربة تمر، ووالدتى كذلك لكى تنتظرنى. عندما أصبحت هنا، رأيت من خلال النوافذ الزجاجية الكبيرة كونت *نانزاك*، والكونتيسة وابنتهما البكر. على المقعد الأمامى كان يجلس الحارس *ماسكريه*، وفى الخلف، خادم مع وصيفة. كانت والدتى تنظر للسادة بعين ثابتة، وشفاه مشدودة، ومقطبة الجبين، وأنا كنت أشعر فى قلبى بتصاعد حركة كراهية عنيفة. هم، برؤيتنا هكذا، بملابس سيئة، مبتلين، موحلين بأقدام حافية فى الأرض الطرية، يديرون عيونهم بوجه بارد، بازدراء، ومرت العربة، بسرعة، وهى تلطخنا ببعض قطرات الطين السائل.

---

(١٧) الليارد: عملة قديمة من النحاس تساوى ربع سو.

عند وصولنا إلى *لسبارات*، رأيت حوض الجزيرة الجميل، والنهر بمياهه الخضراء- تحفه أشجار الحور- التى تنساب تحت قصر بيتى- *شانج*. بدا لى عندما غادرنا وادى *مانوار* الضيق المحاصر بين المنحدرات الجافة الرمادية، بأشجارها الهزيلة، أننا وصلنا إلى بلد آخر. ولكن بعد أن صعدنا سفح *بيجونييه* الصغير، رأيت *بيريجو* فى البعيد، بمنازلها المرصوصة على جبل *سانت- فرون*، وفى الأعلى، صاعدة إلى السماء، القبة القديمة المحترقة من شمس عشرة قرون، كان شيئا آخر. لم أكن قد رأيت إلا بندر *روفينياك* الصغير، ولم أكن أستطيع أن أتصور مثل هذا التكدس من البيوت، رغم أننى لم أكن قد رأيت إلا جزءا منها.

بعد أن سرنا على طول حديقة *مونبليزير*، سوف نعبر أطراف *تورنوبيش* أو، بطريقة أخرى، *باريز*. بعد أن سرنا على طول دير *ريكولليه* (بروتستانت) القديم، الذى أصبح الآن مدرسة تدريب معلمى الأطفال، وصلنا على *البون- فيو* (الكوبرى القديم)، بأقواسه المائلة، المحمى قديما ببرج من ثمانية جوانب حيث الأساسات مازالت مرئية.

بعد أن نظرت جيدا، واقفا على مدخل الكوبرى، مذهولا من صوت المياه الساقطة من السد، جذبتنى والدتى من يدى، وها نحن نصعد الشارع المؤدى إلى ميدان *جراف*؛ شارع صلب، مرصوف بحصى كبير من النهر، أحمر، جعلته أمطار الصباح يلمع فى الشمس.

عندما وصلنا إلى الميدان، المحاط فى ذلك الوقت بمنازل قديمة، على غرار منازل ركن شارع *ليموجانس*، رأينا فى الداخل، فى الموضع الموجود به السوق الآن، فندق المدينة القديم، حيث كانت السجون منذ الثورة. رفعت والدتى المطرقة الحديد الثقيلة التى سقطت فى ضجة تصم الآذان. سمعنا صوت خطوة مصحوبة بصلصلة المفاتيح، وانفتحت الكوة.

-قال صوت خشن: ماذا تريدين؟.

-قالت والدتى: أن أقابل زوجى.

- ومن هو زوجك؟

- إنه مارتيسو، من *كومبوناجر*.

- آه! قاتل لابورى... حسنًا! لا تستطيعى أن تقابليه دون إذن؛ انتظريه عندما يخرج.

وانغلقت الفتحة.

جلست والدتى بجوار الباب على الدكة الحجر التى كانت مخصصة للصعود فوق الخيول، وأنا فضولى، تراجعت عدة خطوات لأتفرج على فندق المدينة القديم الذى شهد مرور كثير من الأجيال. كان عبارة عن مجموعة من المبانى غير المنتظمة، غير المتساوية، صلبة التأسيس لكى تصمد ضد ضربات الزمن. ويشرف عليها جميعا

برج[١٨] مربع للمراقبة، مرتفع، له فتحات، بها مزاريب فى الزوايا وسطح بغاية الحدة تعلوه دوارة[١٩].

بينما كنت أشاهد كل ذلك، انفتح الباب ثانية وإذ بسيد شاب يقول لوالدتى:

- هل أنت زوجة *مارتيسو*؟

-نعم، سيدى فى خدمتك، إذا كان باستطاعتى، قالت والدتى وهى تقف.

- لن تستطيعى أن ترى زوجك الآن، أيتها المرأة المسكينة؛ لكنه سيعرض غدًا أمام القضاة، سوف ترينه. أنا محاميه- أكمل- تعالى عندى قليلا، أحتاج أن أتحدث معك.

وأخذنا إلى غرفته التى كانت فى الطابق الثانى فى المنزل رقم ١١بشارع *لاساجاس* (الحكمة)، هناك حيث مازال موجودا باب قديم جميل بعمدان وزخارف محفورة. بعد أن صعدنا السلم الحلزونى الكائن فى برج من ثمانية جوانب، أدخلنا الرجل إلى غرفته، وأجلسنا، بدأ يستجوب والدتى فى الكثير من الأشياء، وكان يكتب إجاباتها. سألها تحديدًا لو أن أحدًا قد سمع هذه العروض التى قدمها

---

(١٨) برج: كان يستخدم فى العصور الوسطى للمراقبة وحيث كانت ترن أجراس الإنذار.

(١٩) دوارة: دوارة هواء من المعدن توضع أعلى الأبنية ومنها الكنائس، تدل على اتجاه الريح تكون أحيانا على شكل ديك.

لابورى، وأجابته بالنفى، إلا لو كان أبى قد سمعه بالصدفة، لأن هذا الرجل كان خبيثًا ومخادعًا؛ غير أنه كان معروفًا لكل شخص أن هذا الرجل كان يهاجم الشابات اللاتى كن تحت يده، مثل المزارعات، أو العاملات باليومية فى القصر. كان ذلك معروفا عنه، لأنهن عند ارتدائهن الملابس فى الفرن، أو عند الجدول فى أثناء غسل الملابس، كانت النساء تروين لبعضهن، على الأقل تلك اللاتى لم تسمعنه، مثل زوجة *ميون دى بويماجر*.

-قال المحامى: حسنًا، لقد طلبتها للشهادة، مع أخريات.

عندما أنهى أسئلته، شرح لوالدتى ما يجب أن تقوله أمام المحكمة وكيف؛ أنها يجب أن تقص بالكامل الملاحقات غير الشريفة *للابورى*، وأن تحكى بالتفصيل كل الشقاء الذى سببه لهم وجعلهم يعانون منه، بسبب استمرار رفضها له. ونصحها بقول الحقيقة، بأن والدى استشاط غضبًا وأنه لم يسحب بندقيته على *لابورى* إلا عندما رآه يطلق النار من البندقية التى جرحت جبهة والدتى، وبعد ذلك قتلت كلبته.

عندما حان وقت ذهابنا، سأل المحامى والدتى أين كنا نقطن، وبعد أن أخبرته بأننا لا نعرف أين سنسكن، فقد وصلنا توًا، أخذ قبعته وأوصلنا إلى فندق صغير، فى شارع ميزيريكورد. عقب أن أوصى امرأة المدينة علينا، قال لوالدتى ألا تتأخر عن الذهاب إلى

المحكمة عن الساعة العاشرة، فى اليوم التالى؛ وعندما سألته إذا كان يوجد أمل، قام بحركة وقال:

- كل ما هو بين أيدى البشر فهو غير مؤكد؛ ولكن الأفضل أن نأمل حتى النهاية.

٣

في اليوم التالى، فى الموعد المحدد، كنا أمام مبنى التريبونال[٢٠] (المحكمة)، الذى كانوا لايزالون يطلقون عليه هذا الاسم والتى كانت تقع فى ميدان *كوبديرك*، أمام السجون تمامًا، فى الموضع الذى يوجد به اليوم رقم ٨. كنا نمر، من باب المدخل، تحت قبة تؤدى إلى فناء صغير أسود ومحاط بجدران عالية. بينما كنا ننتظر فى هذا الفناء، كنا نتحدث مع أناس من عندنا استدعوا كشهود، ها هى خطوات ثقيلة، أصفاد فى قدمه، ترن تحت القبة، ووصل والدى، يداه مقيدتان، يقوده ثلاثة عساكر. أطلقت والدتى صرخة رهيبة، وبذل العساكر جهدا بلا جدوى، ألقت نفسها على زوجها، احتضنته بالكامل وقبلته بقوة صارخة ومنتحبة، بينما كنت أمسك بساقها وأنا أبكى.

- هيا، هيا، قال العسكر، كفى، كفى، سوف ترينه فيما بعد.

- اعطينى الطفل، قال والدى.

(٢٠) التريبونال: محكمة يعود تاريخها منذ القرن السادس عشر التى كانت تحكم حكما لا يقبل المراجعة، (كان حكمها نهائيًا).

وهكذا حملتنى والدتى بذراعيها، ورفعتنى حتى رقبته، التى شددتها بكل قوتى بذراعى الصغيرين.

-قال والدى وهو يقبّلنى: صغيرى المسكين جاكو! صغيرى المسكين جاكو!

أخيرا كان يجب أن نفترق، رغم أنفنا، شدنا للوراء العساكر الذين يرافقون سجينهم.

بعد أن انتظرنا طويلا، عندما نادى حاجب والدتى، دخلنا فى قاعة عالية طويلة، لها قبة مزخرفة، إضاءتها ضعيفة من خلال نافذتين على شكل أقواس تطلان على فناء. فى العمق، على منصة مغلقة بسياج من الخشب، كان يوجد ثلاث قضاة جالسين أمام مائدة كبيرة مغطاة ببساط أخضر ومكتظة بالأوراق. الذى فى الوسط كان يرتدى زيًا أحمر، يوحى بأفكار مشئومة؛ الآخران كانا يرتديان الأسود، والثلاثة يضعون نظارات. على جانبى المنصة كان يجلس، أمام موائد أصغر، المدعى العام وكاتب المحكمة. على الجدار فى الخلف، فوق القضاة، لوحة كبيرة تمثل السيد المسيح على الصليب، مغطى بالدم.

بينما كانت والدتى تدلى بشهادتها، كان رجل يكرر بالفرنسية ما قالته باللهجة الإقليمية. أنا، لم أكن منتبها لهم كثيرًا، كنت منشغلا بالنظر إلى والدى الذى كان ينظر إلىّ أيضًا؛ ولكن فى لحظة ما، فى

التعاطف الذى خلقته، رفعت والدتى صوتها عاليا، وعند التفاتى، رأيت أن الجميع كانوا يقدرون هذه المرأة الجيدة الصنع تحت ملابسها الرديئة، التى كانت تمتلك وجها جميلاً، وشعرا أسود، وعينين تلمعان عند حديثها عن زوجها.

عندما انتهت، وقف مدعى الملك وألقى مرافعته بحركات كبيرة وصوت صاخب كان يدوى تحت القبة. لم أكن أفهم كل ما كان يقوله؛ ومع ذلك بدا لى أنه كان حريصًا على أن يظهر للمحلفين الاثنى عشر أن والدى كانت لديه فكرة قتل *لابورى* منذ مدة طويلة. وأثبت ذلك، حسب أقواله، كان حديثه القديم مع *ماسكريه* منذ بعض الوقت، بأنه قد يتسبب فى كارثة إذا قتل أحد كلبته، وهذا ما حدث، كان يستحق الموت.

يجب أن نفكر فى أى حالة كنا، والدتى وأنا، بسماعنا هذا المدعى يتكلم عن الموت. بالنسبة لوالدى، لم يبد عليه أنه كان يستمع، وعينيه المثبتة علينا كأنها تقول: "ماذا سيحدث لزوجتى وولدى المسكين إذا تمت إدانتى؟..."

عندما انتهى المدعى، وقف محامينا ودافع عن والدى. أظهر، من خلال كل الشهود الذين استمعنا إليهم، أى وغد كان *لابورى*؛ عرض كل البؤس الذى سببه لنا، وركز على كل العروض غير الشريفة التى لاحق بها والدتى، وأخيرا أظهر بوضوح أن والدى لم

يقتل هذا الرجل إلا فى نوبة من الغضب، وليس بنية مبيتة. باختصار، قال كل ما يمكن لكى يخلصه، ولكنه لم ينجح إلا فى إنقاذ رأسه: حكم على والدى بعشرين عامًا من الأشغال الشاقة.

عندما نطق الرئيس الحكم، سرت غمغمة مخنوقة بين العامة، ونحن أيضا، والدتى وأنا، بصمت تأوهنا وانتحبنا ونحن نمد أذرعنا نحو الرجل المسكين الذى كانت تأخذه العساكر. وبين كل هذا الحشد الذى كان يبتعد، سمعت الكونت *دى نانزاك* يقول *لماسكريه*:

- ها نحن انتهينا منه! سيموت فى سجن الأشغال الشاقة.

بعد الغد، حصل المحامى على إذن وأخذنا لرؤية والدى. ما أتعس اللحظات التى قضيناها فى هذا السجن! سوف أتخطى ذلك، إذ بعد كثير من السنوات، مازال التفكير فيه يؤلمنى.

لم أنم جيدًا فى تلك الليلة. كنت أستيقظ فجأة مرات عديدة، رأسى ملىء بالأحلام السيئة، وألتصق بوالدتى، المرأة المسكينة، التى، لم تنم مطلقًا، ولكى تهدأنى كانت تأخذنى وتقبلنى طويلاً. عندما أقبل النهار، قامت، بينما تركتنى أغفو، وذهبت تجلس بجوار النافذة، تنظر دون أن ترى شيئًا، غارقة فى أحزانها. هكذا رأيتها على المقعد، عندما فتحت عينى فى الساعة السابعة، الذراعان ممددتان، اليدان مضمومتان، الرأس مائل، والنظرة مثبتة على الأرضية. كانت تتصاعد من الشارع صيحات بائعى المبروم والكستناء (أبو فروة)،

مما أدى إلى استيقاظى. ألبستنى والدتى، وخرجنا، معتقدين أننا سنرى والدى ثانية، كما جعلنا محاميه نأمل: لذلك ذهبنا رأسًا إلى السجن حيث قال لنا أن ننتظره. فى الطريق اشترت والدتى باثنين ليارد كستناء (أبو فروة) جاف لم يكن جيدًا، إذ كنا فى نهاية الموسم، وجلسنا بجوار هذا الباب الحديدى الرهيب. فى هذا الوقت الذى كنا موجودين فيه، وأنا آخذ الكستناء واحدة واحدة من جيب مئزر والدتى، وهى حالمة بحزن، إذ بعربة كبيرة بصندوق أسود، طويلة، على شكل شاحنة مقفلة مغطاة ومفتوحة فقط على جوانب النوافذ الصغيرة بحجم اليد ووضع عليها قضبان، وقفت أمام السجن. نزل منها رجل بزى رمادى، وبسيف يتدلى من حمالة بيضاء (من الجلد)، وطرق على باب السجن الذى انفتح وأغلق عليه.

وصل فورًا أطفال، وفضوليون، وناس فى وقت الفراغ، اجتمعوا حول العربة، قائلين فيما بينهم:

- هذه عربة السجن التى سوف تأخذ المحكوم عليهم مؤخرًا.

وقفنا متجمدين، والدتى وأنا، بسماعنا ذلك، عندما انفتح الباب من جديد وخرج منه الرجل ذو السيف، يتقدم شرطى يأتى من بعده ثلاثة رجال مربوطين، حيث كان الأخير والدى؛ شرطى آخر يتبعهم. فتح الرجل الرمادى وراء العربة بابًا صغيرًا ممتلئًا، صلبا من الحديد، وأدخل المحكومين. برؤيتنا والدى يغادر هكذا، دون أن

يودعنا، نحن، أطلقنا صرخات عالية ونحن نبكي، أما هو، رغم دفع عساكر الشرطة له، استدار وصاح فى والدتى:

-تشجعى يا امرأة! فكرى فى الطفل!

وحينذاك صعد شرطى خلفه، وأغلق الباب بالمفتاح، والشرطى الآخر جلس فى الأمام مع الرجل ذى الزى الرمادى، وأطلق الحوذى جياده الثلاثة الذين رحلوا بسرعة كبيرة.

لمدة لحظة، ظللنا هناك، مذهولين تمامًا، كأبرياء، نندب، دون أن نلتفت إلى المتطفلين الذين تجمعوا من حولنا. ومع ذلك سمعت رجلا بمئزر من الجلد كان يقول:

-أنا، رأيته يحاكم، ذاك الرجل، وفى اعتقادى أنه يساوى من قتله مائة مرة ...أما هؤلاء الذين تسببوا فى غضبه فهم مذنبون أكثر منه! آه! كان بإمكاننا منذ عشرين عامًا أن ننتصر عليهم!

حين ذهبنا إلى المحامى، اندهش لدى معرفته أن والدى رحل، إذ إنهم أكدوا له أن عربة نقل المساجين لا يجب أن تمر إلا فى اليوم التالى. ولكن، سواء أكانوا خدعوه متعمدين، أو أنها جاءت مبكرة يوما، انتهى، كان علينا أن نتقبل، كما يقول لنا. بعد أن شجعنا بكلمات جميلة، وواسانا قليلا بوعدنا بأن ينبئنا بأخبار والدى، شكرته والدتى كثيرا على كل ما فعله لكى ينقذ زوجها المسكين، وأيضًا لكل

كرمه معنا. وبما أنها أضافت، بأنها لا تملك شيئًا، فقد كانت عاجزة عن مكافأته على تعبه، أجابها:

- أنا لا آخذ شيئًا من الفقراء؛ لذا ليس عليك أن تنزعجى من ذلك.

وفى هذه اللحظة، سألته والدتى عن اسمه، مؤكدة له أننا نحن الاثنان، سنظل ممتنين له مدى الحياة.

- اسمى *فيدا- فونجراف*، قال؛ إننى مسرور لأننى لم أصنع جميلا مع جاحدين؛ إلا أنه لا يجب أن نبالغ: فأنا لم أقم إلا بواجبى كإنسان وكمحامى.

بمجرد انصراف السيد *فونجراف*، قررت والدتى الرحيل فورًا، حيث إننا لم يكن لدينا أسباب للبقاء فى *بيريجو*، وكنا فى ساعة مبكرة. ذهبنا أولا إلى الفندق، حيث سألت السيدة عما ندين به، وهى ترتجف لئلا يكون معنا ما يكفى من النقود، ولكن الأخرى أجابتها:

- أنت لست مدينة لى على الإطلاق، أيتها المرأة الصالحة: دفع السيد *فونجراف* كل شىء مقدمًا؛ بل حتى خذى، لقد كلفنى بإعطائك هذا.

مدت لها قطعة نقدية تساوى مائة سو ملفوفة فى ورقة.

– يا إلهى! قالت والدتى والدموع فى عينيها، مازال موجودًا فى العالم أناس صالحون! أرجوكِ أن تتكرمى، وتخبرى السيد *فونجراف*، بأننى لم أوفه حقه من الشكر منذ قليل، إلا أننى طوال أيام حياتى، كلما تذكرت مأساة زوجى المسكين، سوف أفكر فى طيبته!

– آه! قالت المرأة، هو حقًا سيد شهم! ولا أريد أن أخطئ فى حق المحاميين الآخرين، أعتقد أنه لا يوجد أبدا مثله!

بعد أن خرجنا من الفندق، ووصلنا إلى ميدان *جراف*، هبطنا ثانية نحو ضاحية *باريس*، وما هى إلا لحظة وكنا فى الريف، على الطريق الكبير.

عندما أصبحنا فى هذا الوادى الصغير الآتى من *الجرون– بونيه*، ويمر تحت *لاجرانفال* ويهبط نحو *سانت– جيراك*، سقطت الشمس تمامًا خلف أفق الغابات، وانتشر الغسق فوق الغابة، يظلم الروابى المشجرة، ومن حولنا، أشجار الكستناء. وفى نفس الوقت كانت أجراس صلاة المساء ترن بعيدا أمامنا، فوق قبة *بار*، وبعد قليل، على يميننا، أضعف كثيرًا، من الخاص *بروفينياك*. أخذتنى والدتى من يدى وأسرعت الخطى؛ ورغم ذلك كان الليل قد حل تمامًا عندما وصلنا إلى معمل القرميد.

منذ اليوم التالى، ورغم حزنها، كانت المرأة المسكينة مهمومة بالعثور على عمل. لم يكن عليها أن تحلم مطلقًا بالعودة عند *جيرال*

بسبب الخادمة التى كانت "تقطع المحشى" لديه، كما يقال عن العشيقات؛ أما أنا، فقد كنت فى شدة الحسرة بسبب *لينا*. بعد جهد فى البحث، وجدت والدتى عملا لدى رجل من *مارانسيه* حيث كان ابنه البكر قد رحل للانخراط فى الجيش إذ، فى ذاك الوقت، لم يعد يتم الاستدعاء للتجنيد بعد هزيمة نابليون[٢١]. لذلك كان هذا الرجل يحتاج إلى شخص لمساعدته، إذ لم تعد زوجته تستطيع، فى وجود طفل رضيع وخمسة أو ستة أطفال آخرين حولها، أخذ والدتى مقابل أجر ستة "سو" فى اليوم والطعام. ولكن عندما أرادت أن تحدثه عن اصطحابى معها مثلما عند *جيرال*، قال لها بخشونة بأن لديه ما يكفى من أطفال لكى تجعله هائجًا، بل إن لديه حتى أكثر مما يجب، ولذا لم يعد يريد المزيد منهم.

حين ابتأست والدتى من ذلك، قلت لها ألا تحمل همى؛ بأننى سأكون بخير بالبقاء وحدى فى معمل القرميد، دون أن أخاف. ورغم ذلك، لم تكن مسرورة بهذا بالمرة؛ ولكن كما نقول عادة: "الحاجة تجعل العجوز تعدو"؛ لا يتصرف الفقراء غالبًا على هواهم، وكان يجب عليها أن تستسلم.

---

(٢١) الاستدعاء للخدمة العسكرية السنوية للشبان المؤهلين للخدمة تم إلغاؤها عام١٨١٤ ثم أعيدت عام ١٨١٨. (المترجمة)

كنت أحب هذه الوحدة ومثل هذا الصمت، الذى كان يخمد الذكريات القاسية لوالدى المسكين، وكل الأيام بينما كانت والدتى تعمل فى *مارانسيه*، كنت أجرى فى الغابات، آكل قطعة من الخبز أحملها فى جيبى، أنعم بالفواكه البرية، وأشرب من الأحواض التى تتجمع بها المياه، إذ لا توجد ينابيع فى الغابة إطلاقا، وأنام على العشب حين كنت أتعب.

يوم الأحد، كانت والدتى تبقى فى معمل القرميد، مسرورة لوجودها معى، وكانت تنشغل بترقيع ملابسنا القديمة البائسة، التى كانت فى أشد الاحتياج لذلك، وخاصة ملابسى، إذ أغلب الظن أن مع هذه الحياة في الغابات، بعبور النباتات الشائكة، وتسلق الأشجار، كانت سراويلى وقميصى يتحملون الكثير. فى ذاك اليوم، كانت تصنع الحساء مع شىء أعطوه لها، أو مع الفاصوليا، وكان يبدو لنا جميلا أن نأكل هكذا معًا، لوجودنا طوال الأسبوع كل بمفرده. تعلم الحاجة مبكرا أطفال الفقير؛ لذلك عندما أكون وحيدا، إذا ما تبقى القليل من المرق، كنت أسخنه أحيانًا، وأسكب لنفسى الحساء فى وعاء صغيرة؛ ولكن، عادة كنت أحب أن أذهب لأركض.

هناك من سيقولون:

-أنتم إذن كنتم تعيشون مثل البروتستانت، لا تذهبون إلى قداس يوم الأحد، ولا إلى صلاة المساء؟

ها! كلا، لم نكن نذهب. كانت والدتى المسكينة تؤمن كثيرًا بالجنة والنار؛ كانت تعرف جيدًا أنها هالكة لقيامها بذلك؛ ومن ناحية أخرى، لم تكن تستطيع أن تتجاهله، إذ عندما قابلها القسيس ذات مساء وهى عائدة منهكة من عملها، أنبها قائلاً، إنها بعدم ذهابها إلى القداس، وبعدم الاعتراف، أو عدم تناول العشاء الربانى الممنوح من الكنيسة للمؤمنين، كان بمثابة الحياة مثل الأوباش. لا لم تكن تذهب إلى الكنيسة ولم تكن تأخذنى إليها، لضيق الوقت، ولكن كان هناك مبرر آخر . إذا لزم قول الحقيقة، لقد كانت غاضبة من الرب: كانت تلومه على إدانة والدى، وعلى الأخص القديسة العذراء. كانت توافق تمامًا على ضرورة عقابه، ولكن ليس بالموت، لأن المذنبين الحقيقيين، هم الذين دفعوه للقيام بهذا الاعتداء، كان الكونت، الذى أعطى الأمر الظالم والشرير بقتل كلبتنا، وكذلك هذه النذالة من *لابورى*، الذى كان يلاحقها بعروضه الحقيرة . أقول العقاب بالموت، إذ فى ذاك الوقت- لم يكن مثل الآن، حيث المحكوم عليهم تتم رعايتهم بشكل أفضل وأكثر سعادة هناك، فى الجزر، من الناس الفقراء الذين عندنا – الذين يتحملون عشرة أعوام من هذه الحياة فى الأشــغال الشاقة تكون بنيتهم قوية؛ ولكن معظمهم كان يموت من قبل، وخاصة الذين يرسلونهم إلى *روشفورت*[٢٢] فى مستنقعات

---

(٢٢) روشفورت: مدينة تم إنشاؤها فى القرن السابع عشر الميلادى. على نهر شارانت.

شارانت[٢٣]. وهناك بالضبط وضعوا أبى، بطلب من الكونت *دى نانزاك*، كما أخبرنا السيد *فونجراف*. فى البداية، بما أنهم قالوا لنا إن *روشفورت* كانت أقرب إلى معمل القرميد، كنا مسرورين بذلك، ليس مثلما تكون بعيدة بخمسين أو مائة أو مائتين ليوو[٢٤]، لم يكن نفس الشيء بالنسبة لنا. ولكننى علمت من أحد بحارة *سانت- ليون* أنه يتم إرسال الذين يريدون التخلص منهم إلى هذا المكان.

ولوالدى المسكين، لم يطل ذلك. العمل طوال اليوم فى وحل النهر، يتغذى بالفول السيئ، مقيدًا ليلا على ألواح الفراش، أصيب بحمى السجن الرهيبة. وفوق هذا فإن فقدان الحرية والحزن قضيا عليه أكثر من المرض: لذلك بعد عدة أشهر مات المسكين البائس يائسًا.

قبل ليلة عيد جميع القديسين بيوم، استدعى العمدة والدتى، وأبلغها بقسوة أمام القسيس الذى كان معه أمام الكنيسة:

-مات زوجك هناك، بالأمس يكون قد مضى على وفاته خمسة عشر يومًا؛ يمكنك أن تقيمى له قداسًا.

-ردت والدتى: الفقراء لا يحتاجون إليه، هم لديهم جحيمهم فى هذا العالم.

---

(٢٣) شارانت: نهر غرب فرنسا.

(٢٤) ليوو: وحدة قياس قديمة تساوى ٤ كم تقريبًا.

وذهبت. كان الظلام حالكًا عندما وصلت إلى معمل القرميد، حيث كنت أنتظرها بركن النار أطهو الكستناء تحت الرماد من أجل عشائى. دون أن تقول شيئًا، فكت منديل رأسها، وأصلحت شعرها، وأخفت تحته طرف المنديل الذى تمت إعادته إلى الأمام .

يجب أن نقول إنه فيما مضى كانت توجد طرائق مختلفة لتغطية الشعر بالمنديل؛ الفتيات كن يتركن طرفا طويلا معلقًا من الخلف، على الرقبة حتى يصطدن زوجًا؛ السيدات الفخورات بالحصول على رجل كن يضعن بخيلاء هذا الطرف فى الأمام على الأذن، بينما الأرامل الفقيرات كن يخبئنه تحت منديلهن، محزونات لترملهن.

فى ذاك الوقت، لم أكن أعرف دلالة هذا الطرف من المنديل، كنت أنظر إلى والدتى وهى تفعل، وأنا مذهول تمامًا. عندما انتهت، أخرجت منجلا قويا له مقبض طويل، وأمسكتنى من يدى، واصطحبتنى وسط الغابة.

كانت تسير بخطوة سريعة، ترغمنى هكذا على الجرى تقريبًا، بكماء، محتشمة، تشد يدى فى يدها بضغطة متساوية وقوية. كنا سائرين دون النطق بكلمة، أنا، يخالجنى الشعور بشىء خطير فى هذا الصمت الطويل، مضطرب مقدما من فكرة الكشف الرهيب. أخيرًا، حوالى الساعة الحادية عشر رأينا على طرف الغابة أسقف قصر

هارم المدببة تعلو فى السماء السوداء، ووالدتى تسرع الخطى وتدور حول الوادى لكى تتجنب القرية. وعند رؤيتنا الأحواض المحيطة، سارت والدتى بمحاذاتها، ولدى وقوفها أمام الباب الخارجى، مرفوعة الرأس، لامعة العينين، تطير الرياح تنورتها، تقول لى:

– يا ولدى، توفى والدك هناكۃ فى الليمان، مقتولا بواسطة سيد *نانزاك:* سوف تقسم على الانتقام له! افعل مثلى.

باتباع الطقس القديم للقسم المهيب، المعتاد بين جمهور الفلاحين فى *بيريجور* منذ آلاف السنين، بصقت فى يدها اليمنى، وصنعت صليبًا فى البصقة بإصبع يدها اليسرى الأول ومدت يدها المفتوحة ناحية القصر.

– الانتقام من آل *نانزاك!* قالت ثلاث مرات بصوت مرتفع.

وأنا، فعلت مثلها ورددت ثلاث مرات:

– الانتقام من آل *نانزاك* !

ثم بعد ذلك، بينما كانت الكلاب الكبيرة تنبح فى حظيرتها، بعد أن سرنا بمحاذاة منازل القرية النائمة، اتخذنا الطريق الملكى الكبير القديم الذى يمر بالقرب من *هارم* ويعبر الغابات متجها نحو *تينون*. بعد ثلاثة أرباع ساعة أصبحنا فى *لاكروا– دو– روشارد*، الموجود حاليا فى طرف الغابة، وبتركنا *لاسالفتات* على اليمين، دخلنا ثانية

فى غابات *جرانفال*، نتبع الممرات لكى نعود إلى معمل القرميد، الذى وصلنا إليه حوالى الساعة الثانية صباحًا.

فى هذه الأثناء كان الشتاء مازال موجودا هناك: لا يوجد عمل لعمال اليومية فى ذلك الحين. لمعرفتها إذن أنها لن تحصل على عمل آخر، والدتى التى كانت غزّالة جيدة، بحثت عن تيل لتغزله، هنا وهناك، ووجدنا القليل منه. وضعت حبة أبو فروة جافة، نية تمامًا، فى فمها، لكى تصنع لعابًا، وكانت تغزل هكذا من الصباح للمساء، تكسب تقريبًا ثلاثة سو (مليما) فى اليوم؛ لم يكن لدينا ما يكفينا من خبز لنأكل. لحسن الحظ، إن الرجل صاحب معمل القرميد كان قد أعطانا نصف الكستناء التى جمعها، بحيث أصبح عندنا منه مقدار كيسين على نبات السرخس، فى داخل الكوخ، مما طمأننا إلى أننا لن نموت جوعًا هذا الشتاء.

متاعب البعض تفيد أحيانا البعض الآخر. فى حوالى نصف الصيام، وقعت زوجة *تابى* مريضة، المكان الذى كانت تعمل به والدتى، بحيث طلب زوجها من والدتى أن تذهب إليها لترعاها، هى والأطفال أيضًا، وتهتم بالمنزل. ظلت المرأة المسكينة طريحة الفراش شهرا ونصف، وبمجرد أن استطاعت النهوض، رغم أنها مازالت ضعيفة، اضطرت لاستئناف عملها، إذ كان *تابى* حريصا قليلا بل حتى بخيلا، لدرجة أن اضطراره للدفع لامرأة من أجل الأعمال المنزلية، كان هذا يحدث قليلا جدًا، بينما كانت لديه واحدة، فإن ذلك

كان يفزعه؛ كثيرا جدا، ما كان يغضب من زوجته لأنها مريضة، كأنه كان خطأها، من الشيطانة المسكينة!

ها هى والدتى مرة أخرى بلا عمل، بحيث إنه بعد شهر ونصف، كانت العدة مليمات التى جمعتها قد أنفقت. جاء اليوم الذى لم يبق لدينا فيه خبز، أو بطاطس. الكستناء كانت قد انتهت من مدة طويلة؛ لا يوجد دهن: كنا نطهو الحساء بزيت مزنخ، ما دام موجودا بعضا منه؛ كان يتبقى، فقط، داخل كيس، القليل من دقيق القمح الإسبانى. كانت والدتى تعجنه، تصنعه قرصا تطهوه، قائلة:

- عندما سينتهى، سيكون علينا أن نحمل الحقيبة ونذهب بحثا عن خبزنا.

عند سماعى ذلك، كنت ألعن الكونت *دى نانزاك* الذى تسبب فى موت والدى فى السجن، والذى كان يريد أن يقضى علينا من البؤس. كنت أردد لنفسى ما كنت أسمع والدتى تقوله كثيرا:

- الرب ليس عادلا لكى نتحمل ذلك!

لو كانت لدى بندقية أبى، التى احتفظوا بها فى المكتب، أعتقد أننى كنت كمنت فى الغابة؛ لكى أقتل مثل الذئب هذا النبيل الشرير، حين يمر على حصانه مع كلابه، بوجه بارد ومزدرٍ، صائحًا، عندما كان يقابل أى فلاح على طريقه:

- اركن، يا همجى!

باجترار كل هذه الأشياء المؤلمة، مهتاجا من البؤس، تذكرت للتو بأننا كنا ليلة *القديس- جان*. من عادتنا في بلادنا أن نشعل نارًا في هذا اليوم، على التقاطعات، بجوار القرى والمنازل المنعزلة. من معمل القرميد، وسط الغابات، لم نكن نستطيع أن نرى كل هذه النيران، غير أنى لم أكن منزعجا من هذا، إذ بمجرد أن فكرت في ذلك، قفزت هذه الفكرة في رأسى مثل الكرة: إشعال النار في غابة *هارم*! منذ هذه اللحظة لم أهتم بشيء آخر: في الليل، كنت أحلم بها. لم يكن تدبيرا فاسدا لطفل أصبح شريرًا قبل الأوان، يصنع الشر للشر، بمتعة؛ كلا. في الحرب دون شفقة على الكونت كنت أرد بحرب مـــماثلة؛ لا أستطيع أن أقتله - الذي كنت سأفعـــله أيضـــا بلا ندم- كنت أسبب له خسارة كبيرة. كنت متمسكا بقسمى، كنت أثأر لوالدى؛ أراحتنى هذه الفكرة. لم يكن كل ذلك واضحا في رأسى، حينذاك، كما هو الآن، ولكننى مع هذا كنت أشعر به.

كان الوصول لغاياتى هو الصعب. كنت أحلم بها كل يوم، أبحث عن الوسائل، أقيمها، أقارنها، وفي النهاية أستقر على الأفضل، أى ما يمكن أن يجعل الحريق جسيما.

بينما كنت أجتر كل هذه الأشياء في رأسى، عرفت والدتى أنهم كانوا في حاجة إلى نساء لتجفيف العشب في *شيرلارد*، ذهبت إليها في اليوم التالى، تاركة لى بمفردى طوال مدة حصد الدريس، إذ إنها كانت تبعد كثيرًا ويصعب العودة منها كل مساء. كانت غاضبة

من ذلك ولكننى هدأتها بطمأنتها بأننى لم أكن قلقا من البقاء بمفردى. لو أننى قلت لها الحقيقة، لكنت أخبرتها بأننى كنت مسرورا لذلك. فى اليوم الأول رافقتها حتى *شيلارد*؛ حيث طلبت القليل من المال مقدما على عملها، اشترت من فران *روفينياك* فطيرة خبز أخذتها معى.

كانت خطتى قد استقرت جيدًا، لم يكن علىَّ سوى العثور على مكان جيد وانتظار اللحظة المناسبة.

مرت عدة أيام فى الانتظار. كانت الشمس الحارقة تجفف الأعشاب والأغصان تحت الأشجار، مما أبهجنى، بإعطائى الأمل فى نار جميلة؛ ولكن ما من رياح. ومع ذلك ذات صباح، مع القمر تغير الطقس، وبدأت رياح شديدة تهب من الشرق، لسعادتى العظيمة. طيلة اليوم، كنت أدبدب على الأرض، نافذ الصبر، وجاء الليل، ملأت قبقابا قديما بالجمرات والجذوات، وخبأته تحت سترتى، وركضت وسط الغابات.

عندما وصلت إلى مكانى، كنت مقطوع النفس ومتعرقًا. اشتعل العشب سريعا: أضفت إليه بعض الأغصان الصغيرة، وفى نفس الوقت الذى كانت النار تأخذ، قطعا صغيرة من الفروع الميتة. بعد أن اشتعلت جيدًا، ألقيت فيها حفنة من العليق الجاف كنت قد جمعته، وتصاعدت الشعلة فورا، واصلة إلى الغابة. سريعا بفعل الرياح،

أصبحت الغابة فى النار، وهربت مثلما جئت. عبر الأجمات، حاملا القبقاب الذى كان يمكن أن يكشفنى.

واصلا إلى معمل القرميد، اليدان تنزفان، والساقان مكشوطتان من الأشجار الشائكة، نمت بملابسى، مضطربًا، قلقًا، لا أخشى إلا شيئا واحدا أن تنطفئ النار من نفسها، أو من العاصفة التى كانت تدوى فى البعيد، وعند استيقاظى خرجت. كان جرس الخطر يدق فى الأبراج المحيطة، مع رنات عاجلة، مشئومة.

انتابتنى رغبة عارمة فى تأمل عملى . وصلت من خلال التقاطعات إلى أحد الأماكن الأكثر ارتفاعًا فى الغابة؛ حيث كانت موجودة شجرة زان عملاقة كنت قد صعدت عليها أكثر من مرة، فاحتضنتها فورا، وشرعت فى التسلق.

بقيت هناك، ممتطيًا فرعا ضخمًا، حتى نهاية اليوم، متتبعًا تقدم النيران التى، باستثناء بعض المناطق المحمية بطرف الطريق، لم تتوقف إلا بعد أن التهمت كل الغابة، تاركة وراءها مساحة شاسعة سوداء تتصاعد منها سحب الدخان. حينئذ، شافيا غليلى، نزلت من فوق شجرتى، وعدت إلى معمل القرميد، ممتلئا بسعادة غامرة.

منذ تلك اللحظة بدا لى، أننى أصبحت رجلا. الاعتداد بتصرفى السيئ أسكرنى؛ كنت أقيس قوتى بحجمه، وكنت مستمتعا فى الإحساس بكراهيتى المتحققة. لم تكن لدى أى ظلال، من الشعور

بالذنب، ليس أكثر من الخنزير الذى ينقلب على الضابط الذى يقود كلاب الصيد، ليس أكثر من الأفعى التى تلذع قدم الفلاح. بالعكس، نجاح مشروعى كان يجذبنى حتى يجعلنى أحلم بوسائل انتقام أخرى.

يوم الأحد عندما جاءت والدتى لقضاء اليوم فى معمل القرميد، سألتنى إن لم أكن خائفا، فى الليل من الحريق، أجبتها بالنفى، وبأننى على النقيض، كنت مستمتعًا برؤية غابة الكونت تحترق.

عندما قلت ذلك بتلك الطريقة، نظرت إلىَّ، ينتابها الشك، ثم فهمت على الفور، ألقت بنفسها علىَّ، ورفعتنى إلى صدرها وقبّلتنى بعنف.

-آه! قالت وهى تضعنى على الأرض، لن يعاقب أبدا بما يكفى!

بعد ثلاثة أو أربعة أيام انتهى الحصاد، عادت المرأة المسكينة فى وقت متأخر، مستنزفة، منهكة من التعب، لمعاناتها من مشقة العمل طوال يوم طويل لمدة خمس عشرة ساعة تحت الشمس الحارقة. أسرعت كثيرا حتى تعود قبل العاصفة التى كانت تعقبها، ولكنها أحسنت بإسراعها، بعد أن مرت على *لاسالفوتان* بقليل، انفجرت السحب فى ضوضاء عالية، ومتعرقة تمامًا، لاهثة، سقطت فوقها أمطار باردة ممزوجة بحبات ثلج، بحيث إنها بعد ثلاثة أرباع ساعة، عندما وصلت تحت هذا المطر العنيف، مبتلة حتى جلدها،

كانت ترتعش، ولم تعد قادرة على الاحتمال. بما أنها لم يكن لديها ملابس أخرى لتبدل ملابسها فقد نامت، وأنا عملت المستحيل. طوال الليل كنت أشعر بها بجوارى تشتعل، تنتفض من الحمى، وتترائى لها فى نومها القلق أحلاما سيئة كانت تجعلها تهذى، أو تخرف. فى الصباح بما أنها كانت امرأة باسلة، أرادت أن تقوم؛ غير أنها بعد أن وضعت الحلة على النار كى تطهو البطاطس، اضطرت إلى العودة للفراش، مأخوذة برعشة وطقطقة أسنان شديدة، وتتوجع من شدة الألم فى جنبيها.

عند رؤيتها هكذا، غطيتها بكل ما استطعت العثور عليه، بتنورتها الجافة وفى النهاية بكنزتى، ولكنها ظلت ترتعد. لذلك فكرت فى الذهاب لطلب مساعدة، ولكن عندما حدثتها عن ذلك، قالت لى بضعف:

-لا تتركنى، يا بنى جاكو!....

كما هو متوقع، كنت فى غاية القلق. لا أعرف ماذا أفعل كى أهدئ العطش الذى كان يعذبها، قطعت إرباعا من تفاح كانت المرأة المسكينة قد أحضرته من أجلى فى جيب مريلتها، وغليته وصنعت منه نوعا من المنقوع المغلى الذى كنت أعطيه لها كلما طلبت أن تشرب، وهو ما كان يحدث كثيرا.

أحيانا كنت أقول لنفسى، لو أنها استطاعت أن تنام لجريت حتى *جرانج* لإحضار العون؛ ولكن، حين كنت أتحرك أقل حركة كانت تفتح عينيها وتقول:

- هل أنت هنا يا بنى؟ لا تتركنى!

وكنت أرد عليها ممسكا بيدها:

- لا تخش أبدا، يا أمى، لن أتركك.

وكانت تغلق أجفانها الملتهبة من الحرارة، وصدرها اللاهث، مختنقا.

فى الليلة التالية، بدأت تهذى، متحدثة عن المقصلة، عن الأشغال الشاقة، تنادى زوجها المسكين، الميت هناك، فوق لوح عارٍ، سلاسل الأقدام. كانت تسترجع فى رأسها كل مآسينا التى أذهبت عقلها. كانت تصرخ على الكونت *دى نانزاك*، وتنكر العذراء مريم التى لم تنقذ زوجها. فى حمّتها، كانت تضرب بذراعيها على اللحاف لكى تطرد الجلاد الذى كانت تقول إنها تراه داخل السرير، أو كانت تحاول النهوض كى تذهب لتنضم إلى زوجها *مارتيسو* الذى كان ينتظرها. كنت أعانى كثيرًا فى تهدئتها قليلا؛ كان على أن أصعد على الفراش، وأمسكها من رقبتها وأكلمها مثل طفل صغير وأنا أقبلها. فى الصباح، منهكة من التعب، غفت قليلا، وأنا حين رأيتها هكذا، اعتقدت أنها كانت تتحسن؛ ولكن، عندما استيقظت فجأة بأنين

طويل، أدركت تمامًا أن لا. أصبح تنفسها صعبا شيئًا فشيئا، ومتلاحقًا، وكانت الحمّى شديدة إلى درجة أن يدها كانت تلهب يدى. انقضى النهار هكذا، وعندما أتى الليل، لم تعد تستطيع الكلام، وإنما كانت تتأوه، وترتجف تمامًا. يا لها من ليلة! كيف تتصور طفلا وحيدا فى كوخ مفقود وسط الغابات مع أمه المحتضرة! خلال بضع ساعات، ناضلت المسكينة البائسة ضد الموت، تطلق ذراعيها بعنف، محاولة إزاحة اللحاف، تنهض تمامًا من رجفة الحمّى، بعيون تائهة، وصدر لاهث، وتسقط ثانية على السرير، تتقطع أنفاسها لوهلة، لكى تلتقطها من جديد بجهد كبير. حوالى منتصف الليل أو فى الواحدة، توقفت الحمّى، وخرج صوت أجش من صدرها، حشرجة الموت! الذى استمر نصف ساعة؛ كنت على المقعد بجوار السرير نصف راقد، كنت أمسك يد والدتى المسكينة المشدودة على صدرى. استعادت وعيها تمامًا فى النهاية؛ وجهت عينها المليئة بيأس معذب نحوى وسالت دمعتان كبيرتان على وجنتيها الهزيلتين الملفوحتين؛ ثم تحركت شفتاها، توقفت الحشرجة : كانت قد ماتت.

وهكذا، أنا الممتلئ بالألم والترويع، كنت أناديها:

-أمى! أمى!

وشرعت فى النحيب على يدها التى احتفظت بها فى يدى.

ظللت هناك طويلا بلا حراك، منهارا. عندما رفعت رأسى، فى بريق النسيج، الذى جعلته الرياح القادمة من ثقب المعمل يتأرجح، رأيت وجه أمى الذى أصبح بلون الشمع الأصفر. ظلت عيناها مفتوحتين، وفمها أيضا، وبينما كانت شفتاها تهذى تاركة الأسنان تظهر. أوه! أى رعب مميت عصف بى عند رؤيتها هكذا! لم أستطع النظر إليها دقيقة، وأخفيت وجهى فى الملاءات، ملىء باليأس والفزع، هكذا قررت قضاء ليلتى الرهيبة.

أتى الصباح، استيقظت مطمئنا قليلا ورأيت والدتى المسكينة. أصبحت الآن باردة، صلبة من الموت؛ يدها التى لمستها كانت تثلج يدى؛ شعرها الأسود المنكوش من حركات الحمى، انتشر فى خصلات غزيرة على السرير، مثل الثعابين؛ أصبح شحوبها ترابيا؛ عيونها زجاجية كابية، وفمها، مازال مفتوحا على اتساعه، كان يبدو كأنه يصرخ بيأس لتركها طفلها وحيدًا على الأرض.

ظللت هناك أتأملها لوهلة، ثم عملت ما كنت أسمعهم يقولونه عما يفعلوه فى مثل هذه الحالة، غطيت وجهها بملاءة، وأغلقت الباب وذهبت لإحضار أحد. عند البحيرة الصغيرة، رأتنى امرأة كانت تغزل وهى متكئة على حائط، أمر مهموما، سألتنى عما بى. حين أخبرتها عما حدث، رفعت ذراعيها قائلة:

- أيتها القديسة العذراء!

ثم أمطرتنى بالعديد من الأسئلة، وانتهت بأن قالت لى:

- أنت إذن طفل المرحوم *مارتيسو*!

كان هذا كل شيء. وبما أنها لم تعرض علىّ تقديم أى خدمة، فقد تركتها واتجهت مباشرة إلى *بار*، عند العمدة الذى تعرف علىّ فورا.

- وماذا تريد؟ قال لى بغلظة، كعادته.

بعد أن أخبرته بموت أمى، أظهر استياءه، وزمجر ببعض كلمات من بين أسنانه وانتهى بأن رد علىّ بصوت مرتفع:

- يمكنك أن تعود إلى منزلك وسوف نقوم باللازم.

عدت إلى معمل القرميد وجلست منتظرًا أمام الباب طيلة اليوم. فى حوالى الساعة الخامسة، جاء أربعة رجال معهم نقالة لها حواف، تشبه صندوقا طويلا له نقالة يد كان يستخدم لنقل الفقراء إلى الأرض، الذين لم يكن فى استطاعتهم الحصول على تابوت، كان شائعا فى ذلك الوقت. ما إن دخلوا حتى قام أحدهم باستكشاف وجه أمى وقال:

- يا للمرأة المسكينة! كانت صغيرة جدا على الموت!

تركوها فى الملاءات، أنزلوها عليها، ثم وضعوها فى اللحاف القديم، الملىء بالسراجات وبقطع مختلفة من الرقع، بعد أن رتبوها

جيدا فيه، ربطوا الأكفان فوق الرأس وعند القدمين. بعد ذلك، أخذوا هذا الجسد المسكين المتصلب ووضعوه على النقالة، أمسك كل واحد منهم أحد الأذرع الأربعة، وساروا نحو الغابة.

وأنا، كنت أتبعهم آليا، أقف حين يقفون، وأغادر معهم، تائهًا فى أحزانى، لا أفكر فى شيء، أنظر بعين لجسد أمى المستسلم فى اللحاف، الذى أخذ يتأرجح بسبب الارتطام بالأرض، ومن حوله ذباب أسود ضخم كان يأتى يطن.

عند الخروج من الغابة، بما أن الطرق كانت جرداء وأفضل، استطاع الرجال أن يحملوا طوال الوقت على أكتافهم ويسرعوا الخطى. عند المرور بجوار قرية، كانت امرأة عجوز فقيرة قد أحضرت للتو خبزها، فقد كانت تحمل خُرجا نصف ممتلئ على ظهرها المقوس، رسمت علامة الصليب قائلة بصوت منخفض:

-من المحزن رؤية إنسان مسكين محمولا إلى الأرض هكذا!

وأخرجت مسبحتها من جيبها وتابعت معى.

كانت الصلوات تدق عندما وصلنا إلى مدينة *بار*. وضع الرجال النقالة أمام بوابة الكنيسة، وذهب أحدهم لإحضار القسيس، الذى جاء بعد قليل، ألقى نظرة على الجسد، وقال:

-هذه المرأة لم تكن ترتاد الكنيسة ولم تتناول فى عيد الفصح (عشاءً ربانيًا تقدمه الكنيسة لأبنائها فى عيد القيامة)؛ كانت تنكر

الرب والقديسة العذراء، كانت بروتستانتية، لا صلاة لها... يمكنكم أن تحملوها فى ركن الجبانة حيث المقبرة محفورة.

وقف الرجال لوهلة مذهولين، ثم أخذوا حمولتهم، دخلوا المدافن بينما كانت العجوز تقول لى:

- إذا كان لديك ما تدفعه، لكان سمح مع ذلك بدفنها... يا يسوع المسيح!

فى أحد أركان المدفن، الملىء بالأحجار الصغيرة، والأشجار والنجيرة الشائكة، كانت الحفرة قريبة تماما منه، والرجل الذى حفرها ينتظر. وضع الحمالون الجثة على لوح خشبى مائل وبقدر استطاعتهم، جعلوها تنزلق ببطء. ثم سحبوا شيئا فشيئا اللوح، ووالدتى المسكينة رقدت فى عمق الحفرة السوداء، حيث كانت بالكاد ممددة وبدأ الحفار يهيل التراب والأحجار التى كانت تسقط فوقها بصوت خافت.

فى هذه الأثناء وأنا غارق فى أحزانى، كنت واقفا، أنظر كالأبله للحفرة المردومة. وبجوارى العجوز راكعة تتلو صلواتها. بعد أن أتم الرجل، وقفت، رسمت صليبا وأمسكت ذراعى، قالت لى:

تعال يا صغيرى، انتهينا.

وتبعتها حتى القرية حيث كانت تعيش بعيدا فى صومعة وعندما جعلتنى أصعد، محطما من الألم والتعب، سقطت على التبن ونمت نوما عميقا.

٤

فى الصباح، عند استيقاظى، دهشت كثيرا لوجودى فى مخزن غلال؛ ولكن سرعان ما استعدت ذاكرتى. نظرت من حولى: كانت العجوز قد رحلت، لكنها، توقعت أن أكون جوعانا، فتركت لى قطعة كبيرة من الخبز. كانت معدتى تصرخ، حيث إننى لم آكل شيئا منذ يومين.

أخذت الخبز ونزلت من الصومعة. لم أر أحدا فى الفناء، وكان باب المنزل مغلقا؛ ومما رأيت، ذهبت وأنا آكل.

عند وصولى إلى مصنع الطوب (القرميد) عندما رأيت هذا المنزل المتهالك مهجورا وهذه الملة الخشب، التى لم يبق عليها إلا المرتبة ووسادة رديئة، جلست على الدكة وأخذت أبكى وأنا أفكر فى والدتى المدفونة هناك تحت ستة أقدام من التراب وأنا أرى نفسى وحيدا فى العالم. بعد بكائى على سجيتى للمرة الأخيرة، قررت الرحيل.

سألت الذين قابلتهم على الطريق، فى القرى، أين يمكننى أن أجد من يستأجرنى، ولكن الذين توجهت إليهم فى البداية لم يقولوا لى شيئا مفيدا.

عند المساء، بدأت أفكر أين أختبئ فى الليل. أمامى، على الربوة المجاورة، كانت توجد قرية مقامة، حيث كانت تلمع النوافذ فى ضوء غروب الشمس مع انعكاسات الأضواء الحمراء. ولكن أن أذهب إليها طالبا ملجأ، كان بالنسبة لى كطلب الطعام، يشعرنى بالحرج. كنت مع ذلك قد نمت الليلة الماضية فى صومعة مثل المتسول، ولكن المرأة العجوز هى التى اصطحبتنى، دون أن أعرف أين كنت. كان الجو جميلا ودافئا بحيث إننى لم أقلق كثيرا على ذلك، أكملت طريقى. هبط علىّ الليل وأنا فى منطقة *البانسونى*، حين رأيت فى إحدى كرمات العنب الضائعة إحدى تلك الأكواخ المستديرة بسقف مسنن من الحجر، توجهت إليه مباشرة. كان يوجد فى العشة، عشب وسرخس جاف مما يشير إلى أنهم كانوا يأتون إليه للمراقبة: رتبت نفسى على هذه القمامة ونمت.

فى الصباح، منذ الفجر، ذهبت من جديد، وسرت على غير هدى لساعات طويلة، أعرض نفسى على المنازل الكبيرة ولكن دون جدوى. لم آكل فى ذلك اليوم شيئا، أخجل دائما من التسول، وعندما أقدم الليل، نمت تحت شجرة كستناء، فى كومة من الأعشاب المقطوعة. لم أنم فى البداية، إذ بدأت أقلق من ألا أعثر على من يستأجرنى، وسألت نفسى عما سيحدث لى إذا استمر الحال هكذا. فى النهاية، رغم هذا القلق وعضة معدتى، انتهيت بأن أغمضت عينى.

أيقظتنى الشمس، وشرعت فى السير من جديد. لكننى كنت فى شدة الجوع لدرجة أننى عند مرورى على قرية اسمها *لاسوزاردى،* رأيت امرأة على الباب حسنة الطلعة، تجاوزت خجلى وطلبت منها إحسانا، "لله"، حسب العادة، وأنا أخفض عينى. ذهبت المرأة وأحضرت لى قطعة خبز، كان أسود وأصلب خبز رأيته فى حياتى؛ ورغم ذلك أخذت آكله على الفور من فرط جوعى. وحينذاك، استجوبتنى، وبالطبع، استمعت باهتمام لأجوبتى، أرشدتنى هذه المرأة إلى طريق قصر *أوبروش،* بالقرب من *فانلاك،* حيث ربما يأخذوننى. ولكن، عند وصولى إلى *أوبوش،* قال لى الخادم، دون أى تفسير، إنهم ليسوا فى حاجة إلىّ هناك.

بدأت أعتقد أن ساحرة ألقت علىّ سحرا سيئا؛ ولكن ماذا نفعل فى ذلك؟ رحلت من جديد، ومتسلقا الربوة الخشنة الجرداء التى بداخلها القصر، ذهبت باتجاه *فانلاك.*

فى أثناء صعودى الطريق القاسى والحجرى المحاط بجدران حجرية جافة، انتابتنى أفكار تعيسة عن مستقبلى. ومع ذلك، كنت حريصا على التمسك بالشجاعة وأنا أتبع هذا الطريق الصعب، يحيينى الأمل. تسقط خطوط الشمس بقوة عمودية على وجهى المسمر (بفعل حرارة الشمس والهواء)؛ كانت الحرارة مرتفعة، وأحجار الطريق تحرق أقدامى العارية. وأيضا، عندما وصلت إلى قمة الربوة العالية المليئة بالأحجار والزلط حيث كانت توجد قرية

فانلاك الصغيرة، كنت منهكا، وجلست فى ظل الكنيسة القديمة لكى أستريح.

على الميدان الصغير أمام الكنيسة، تحت صليب قديم، كان ديك ينبش الأرض وينادى دجاجاته لكى يعلمهم بوجود دودة. كنت أتأمل كل ذلك، آليا، بعيون نصف مغلقة، مهدهدا بهذا الضجيج الذى يغلفنى، وذابلا من قلة الطعام. بينما كنت هناك، حالما بصورة غائمة بالمستقبل الذى ينتظرنى، رنت أجراس صلاة الظهيرة مرسلة للبعيد، على القرية المحترقة من الشمس، صوتا واضحا، يجعل الجدران الضخمة التى كنت مستندا إليها تهتز. ثم توقف الجرس، وخرج القسيس من الكنيسة، حيث كان يحل دون شك مكان قواس الكنيسة (الحاجب) الذى كان مشغولا فى الحصاد. عندما رآنى توقف وقال لى بصوت قوى، ومع ذلك لطيف:

- ماذا تفعل هنا، أيها الصغير؟

كنت قد وقفت، وبينما كنت أروى له قصتى، كان ينظر إلىَّ بشفقة. وكنت أستحق ذلك إذ إننى منذ جررت ملابسى، كانت قذرة. بينما كان القسيس يتفحصنى، كنت أرى، فى عينيه اللتين بلون التبغ، شفقة كبيرة تظهر. كان رجلا طويلا، قويا، شعره أسود بدأ يصبح رماديا، بجبهة مربعة، ووجنات سوداء بسبب لحية خشنة لها يومين. كان أنفه المستقيم، اللحيم، يقسم وجهه النحيف، وذقنه متقدمة، بثقب

فى الوسط، مما كان يعطيه شكلا يخيفنى قليلا؛ ولكن عينيه، حيث كانت تنعكس طيبة قلبه، كانت تطمئننى.

عندما انتهيت من الكلام، قال لى القسيس:

تعال معى.

كان المنزل الكهنوتى هناك، بالقرب من الكنيسة، كان الباب يؤدى إلى الميدان الصغير، ليس بعيدا عن بئر قديم له حلقة مستهلكة بحبال لغرف الماء. دخلت خلف القسيس، صرخت خادمته التى كانت تغرف الحساء:

- هيه! من أحضرك معك إلى هنا؟

أنا، هززت رأسى، مما جلب إلى شفتى القسيس بداية ابتسامة صغيرة، بينما كان يرد على خادمته:

- إذا كان لدينا طعام، سوف نقدمه له، عزيزتى *فانتيل*؛ الأهم الآن، هو إعطاؤه ما يأكله، لأننى أعتقد أنه لم يأكل جيدا منذ بعض الوقت.

وفوق ذلك، ذهب إلى المطبقية، أخذ منها صحنا من السيراميك مرسوم عليه زهور، وملعقة صفيح، وبعد ذلك ملأ الطبق بحساء كرنب لذيذ.

- امسك، كل.

بينما كنت آكل بنهم، كان القسيس واقفا عند طرف المائدة ينظر إلىَّ بسرور. بعد أن انتهيت، أخذ إبريقا كانت الخادمة قد ذهبت وملأته وصب لى خليطا جيدا من النبيذ والشوربة.

- قال لى وهو يرينى الحساء: أتأكل ملعقة ثانية؟ عندما انتهيت من الشرب.

لم أجرؤ على قول نعم، كنوع من الأدب، ولكنه عرف وملأ لى طبقى من جديد، بعد ذلك مر من الجانب الآخر، حيث حملت له الخادمة سلطانية الشوربة.

بينما كان فى غرفة ثانية مجاورة، حيث كان ينام، نظرت للغرفة التى كنت فيها.

فى هذه الأثناء عاد بلفة قماش تحت ذراعه واصطحبنى.

"عند مروره فى المطبخ، رأت *فانتيل*، اللفة، فهزت رأسها"

- أتعرف أنك قريبا لن يكون لديك ما ترتديه!

- أوف! قال القسيس دون أن يتحرك، مازال موجودا أراضى مزروعة بنباتات التيل فى القرية وكذلك الغزالون، دون أن نحسب أن *سيجان*، النساج، لا يطلب إلا أن يعمل وخرجنا بينما كانت *فانتيل* تقول:

- أجل، أجل اضحك، ثم عندما لا يصبح لديك أى قمصان....

وسط درب صغير يمر بين الحدائق، ويؤدى إلى بساتين عنب محاطة بجدران منخفضة تخرج منها أوراق التين، فتح القسيس بابا مستديرا، ووجدنا أنفسنا فى فناء يغلقه إسطبل، ودواجن ومخبز وجدران كبيرة. فى الداخل منزل قديم ينتهى من ناحية بفيلا من طابق واحد لها قمة سقف عالية.

فى الفناء، كانت خادمة تعطى الحبوب للدواجن والحمام.

- قال القسيس: أين سيدتك يا، *طوانيت*؟.

-حسنا، سيدى القسيس، مدموازيل *هارمين* فى صالون الطعام.

-فى هذه الحالة أمر من الحديقة.

ودفع القسيس بوابة صغيرة، وسار بجوار الجدار المفروش بالياسمين، والورود المتسلقة، وأشجار الرمان المزهرة، وتوقف أمام سلم صغير بثلاث درجات. كانت النافذة مفتوحة، وفى المدخل، امرأة عجوز، شعرها أبيض، كانت تعمل وهى جالسة على فوتيل كبير، وكرسى ملىء بالقماش أمامها.

حين سمعت القسيس يحييها، رفعت نظاراتها وقالت:

-آه! حضرتك، أراهن أنك أحضرت لى عملا؟

-تماما... وهو عمل عاجل أيضا!

-عملت ثانية اكتشافا جيدا؟

- أجل.

واستدار، وقدمني للآنسة المسنة.

- أوه! يسوع المسيح! صرخت، ومن أين أتى ذلك؟

-من غابة *باراد*.

-لذلك لا يدهشنى أن يكون هكذا رث الثياب، تعالى هنا يا صغيري!

- وعندما صعدت الثلاث درجات أصبحت أمامها، أضافت:

-يحتاج إلى ملابس، مؤكد.

-لكي نبدأ، هاك ما يكفي لعمل قميصين.

فردت العجوز القميصين وقالت:

- ها! ليسا ممتازين، أيها القسيس! فى النهاية سنحاول استخدامهما.

وبدأت تأخذ قياسى، بقميص، طول الجسم، وطول الأكمام، وتُعلم كل هذا بدبابيس.

– سأبدأ على الفور، استمرت؛ ستساعدنى *طوانيت* وغدا سينتهى واحد... هذا الطفل لطيف، أتعرف أيها القس، أضافت وهى تنظر إلىَّ، وتبدو عليه اليقظة مثل أم الفئران.

– آه! النساء دائما حساسين للمصلحة المادية! قال القسيس ضاحكا.

– لو كنا كذلك، ردت الآنسة العجوز ضاحكة، لما كنا أصدقاء جيدين.

– لمسة لطيفة! قال القسيس وهو يضحك أيضا. وأين السيد *شوفالييه* (الفارس)؟

– ذهب حتى *لاجراندى،* ليرى إذا كان الطحان جمع قمحا كثيرا.

-للأسف لا أعتقد، مع الجفاف المستمر منذ شهر، مؤكد أن البحيرة جافة... هيا، آنستى، إلى اللقاء وشكرا!

عندما خرجنا من هناك ذهبنا إلى النساج. فى غرفة سفلية، مثل القبو، حيث لا نراه فيها، كان الرجل جالسا على كرسى عالٍ، يحرك آلته (نول للنسيج) بيديه وقدميه، مثل العنكبوت الذى يغزل نسيجه.

-*سيجان*، قال القسيس، يلزمنى قماش جيد صلب، لعمل سراويل وجاكيت لهذا الصبى.

- هذا ليس جيدا، سيدى القسيس سوف أعطيك هذا.

وبعد أن حدد السعر، قاس بمازورته القماش الذى أخذه القسيس. فى الطريق دخل منزلا صغيرا.

-زوجك موجود *جينيل*؟

- لا سيدى القسيس، يعمل فى *فالماسيجا*؛ ولكنه سينتهى غدا.

- إذن، ليأتِ غدا، دون تلكؤ، لا تنسى أن تخبريه، كى نلبس هذا الصبى؛ فهو كما ترين يحتاج لذلك.

-نعم، المسكين.

- قال لى القسيس: الآن، ونحن ذاهبان، سوف ألبسك زوجا من قباقيب *مونتينياك*[٢٥]، وبونيه؛ هكذا سوف تكون جاهزا.

- عذرا، سيدى القس، ولكننى لن أحتاج إلى قبقاب (سابو) قبل الشتاء، بما أننى معتاد على السير حافى القدمين على الأحجار والشوك، وبالنسبة للبونيه (الطاقية)، لا أعانى من شىء على رأسى.

---

(٢٥) مونتينياك: مركز مقاطعة دوردونى، على نهر فيزار. (المترجمة)

-هذا صحيح لديك باروكة جيدة؛ ولكن كل ذلك سينفعك من وقت لآخر.

بمجرد أن عدنا، سألت الخادمة القسيس أين يريدنى أن أنام.

-فى الحجيرة التى خلف غرفتك، حيث نضع الملابس؛ سوف تعدى له أربطة السرير.

وذهب إلى الحديقة يقرأ صلاته.

فى المساء، جاء السيد فارس *جاليبارت* بعد العشاء، وعند رؤيتى قال:

-آه! آه! ها هو همجى غابة *باراد* الصغير... يا لسواد العينين، ويا للشعر! توجد هنا قطرة دم عربى... وماذا تفعل هناك، أيها الصبى؟

عندما رويت له حكايتى، أخرج الفارس علبة تبغه من جيب صديريته الكبير، أخذ صيدا جيدا، وقال هذا المثل:

- سيل يقول المثل:" إلزام النبلاء"

الذى، بالشر، يصيب أقرانه.

ثم وجد القسيس فى الحديقة وهو يغمغم من بين أسنانه :

-بالتأكيد، هذا *الناتزاك* لا يساوى شيئا.

. بعد يومين، كنت مرتديا ملابس جديدة، وكان لدى قميص أبيض. كان بنطلونى وسترتى يبدوان لى رائعين؛ ولكنى ظللت عارى الرأس والقدمين.

- قال لى القسيس: على راحتك ومع ذلك يوم الأحد يجب أن تلبس الجوارب التى تصنعها لك *فانتيل*، وقبقابك، لكى تأتى إلى القداس.

يا للتغيير فى حياتى! بدلا من السير فى الطرقات بحثا عن رزقى، دون أن أعرف أين سأنام فى الليل، كان عندى الطعام والمأوى، وكل عملى كان يتلخص فى إحضار الماء من البئر أو تقطيع الحطب من أجل المطبخ؛ فى مساعدة *فانتيل* فى التنظيف، والقسيس فى الحديقة؛ لم أكن أخشى إلا شيئا واحدا ألا يدوم هذا الوضع.

ذات مساء، فى أثناء الرى، تكلم معى القسيس هكذا:

-الآن بعد أن أصبحت أليفا، سوف أعلمك أولا أن تتحدث الفرنسية، وبعد ذلك القراءة والكتابة؛ ثم بعد ذلك سوف نرى.

أسعدنى كثيرا هذا الكلام، إذ فهمت منه أن القسيس كان مهتما بى وكان يريد الاحتفاظ بى. منذ هذا اليوم، كل صباح، بعد القداس، كان يجعلنى أقرأ ساعتين كاملتين؛ بعد ذلك، كان يعطينى دروسا

لأستذكرها فى أثناء اليوم، وفى المساء كان يعطينى درسا لمدة ساعتين قبل العشاء.

ومع أنى مازلت طفلا جاهلا، كأى إنسان لا يفعل شيئا سوى أن يبدأ فى التعلم، فإننى لاحظت سريعا أنه ما من شىء أكثر متعة للقسيس من فعل الخير، وأن يرى أن الذين يقدمه لهم يستفيدون منه. مما كان يعطينى رغبة شديدة فى التعلم، لرؤية كل تلك المودة التى كان يعلمنى بها.

- قال لى: قريبا سوف تتعلم تماما القراءة، سوف تتعلم تراتيل القداس، وستساعدنى فيه، إذ إن المسكين فرانسيس أصبح مسنا.

عندما تكون الرغبة متوفرة نتعلم بسرعة. كذلك قال لى القسيس ذات يوم:

- فى عيد الفصح، ستكون فى حالة تسمح لك بالخدمة فى القداس.

شكرته فحسب، إذ إنه لم يكن متمسكا بالرسميات ولم يكن يحب المجاملات، كان طيبا على الرغم من أنه ليس من الممكن قوله.

منذ تلك الحظة، أصبحت أعمل مساعدا للقسيس (وكيل، حامى للكنيسة)، والعجوز فرانسيس لم يعد لازما إلا لقرع أجراس الصلاة والتنزه بحماره لكى يجمع القمح والزيت الذى يعطونه له على تعبه،

كما كانت العادة. كنت سعيدا بشكل لا يوصف بأن أكون مفيدا للقسيس.

أنا، كنت مطيعا بقدر استطاعتى لأوامره، وكنت أستمتع بذلك؛ ولكن كان يوجد فى أعماقى شيء لا أستطيع التغلب عليه، هو كراهيتى للكونت *نانزاك*. عندما كان يعود ماضى طفولتى الأولى المؤلم إلى ذاكرتى، كنت أقول لنفسى بأننى سأكون طفلا جاحدا ومذنبا إذا نسيت كل الشقاء الذى فعله بنا هذا الرجل وكل النكبات التى أصابتنا بسببه، وعندما كنت أفكر فى والدى الذى مات فى المعتقل، وأمى التى ماتت معذبة من كل آلام اليأس، تنتعش كراهيتى الملتهبة، مثل نار الحطابين التى تقوم عليها رياح الشرق.

من الواضح، أن وسط هذه الاهتمامات، كان كل ما أعرفه من أضرار تصيب *آل نانزاك* كانت تسعدنى كثيرا. ذات يوم، حدث ما أرضانى. كنت فى الحديقة، بينما كان القسيس والفارس يتنزهان فى الممر الأوسط الكبير، سمعتهما يرويان أن الابنة البكر من بنات *نانزاك* رحلت مع شخص تافه، لم يعرفوا أين. أثار ذلك انتباهى، وسمعت كل ما قاله الشريف:

- أنا يا قسيسى المسكين، لست مثلك، لا يدهشنى ذلك:

ممن يأتى هذاء الدم لا يمكن أن يكذب.

- ماذا تريد أن تقول؟

- سوف ترى يا صديقى. حالة آل *نانزاك* ليست فريدة: هم نبلاء، ولكن على طريقة مندوبى *بونشاران*[٢٦]، الذين كانوا يبيعون خطابات النبالة مقابل ألفى إيكو. والد ماركيز اليوم المسن كان ببساطة حاملا مياه، من *سانت- فلور*، الذى بدأ ثروته فى شارع *كانكمبوا*[٢٧] *وكبرها* باللعب فى الإمدادات العسكرية وفى كمية من الأعمال غير المشروعة. هذا الجابى[٢٨] المدعو *كروزات*، سمى نفسه *نانزاك* بسبب أرض مزروعة بالمشاركة كان يمتلكها فى بلده. اشترى أرض *هارم*، وأصبح نبيلا، بفضل أمواله. تزوج ابنه، الماركيز الحالى، امرأة بلا أصول، التى أصبحت مشهورة بمزحاتها، فى زمن كان يصعب التمييز فى هذا النوع. انتشار علاقاتها الغرامية لقبتها *بالفناء والمدينة*، من بين العديد من أحبائها، كان منهم المفيدون. العجوز الفاسق *لافريليار*[٢٩]، وزير لويس الخامس عشر القوى، كان يستسلم لكل رغباتها. هو الذى منح ابن حمال الماء لقب ماركيز الذى ارتداه... تعرف الآن أيها القس، عمن ورثت فتيات الكونت، كانت لهن مثل هذه الجدة.

---

(٢٦) المشرف المالى للويس الرابع عشر، الذى أنشأ عام ١٦٩٦ خطابات النبالة لبيعها.

(٢٧) شارع باريس، مركز رئيسى للأعمال تحت الوصاية.

(٢٨) جابى ضرائب استثنائية.

(٢٩) وزير لويس السادس عشر الشهير بكياسته وإسرافه، خزله الملك فى ١٧٧٥.

-ها هى قصص شريرة، قال القسيس، لم أكن أعرف هذه الجذور.

كنت أسمع هذا الحديث دون أن أفوت كلمة منه. أسعدنى تماما معرفة أن *النانزاك* لم يكونوا نبلاء من معدن أصيل؛ وحقا حينما أقارنهم بالشريف (الفارس) وشقيقته، اللذين كانا الزهرة الرقيقة للناس الأبطال، طيبين كخبز الكنيسة، شرفاء لأقصى حد، لم أستطع أن أمنع نفسي من الاعتقاد بأن هناك جذرين للنبلاء، البعض طيب، والآخر شرير. كانت فكرة طفولية؛ ومذاك أدركت أن الأمور كانت مختلطة هنا، ككل مكان.

بعد مدة من هذا الحديث قال لى القسيس:

- جاكو، الآن يجب أن تفكر فى اتخاذ مهنة. لنر، ماذا تفضل؟ هل تريد أن تصبح نساجا؟ صانع قباقيب؟ مارشال؟ هل تريد أن تتعلم عند *فيرالو* الخياط؟ هل لديك فكرة عن أى مهنة؟

- سيدى القسيس، سأفعل ما تنصحنى به.

- حسنا، أنصحك بأن تصبح مزارعا. فهى أهم المهن، الأكثر صحية، الأكثر ذكاء. فالعمل فى الحقول كما ترى هو الذى حرر شعب فرنسا من السخرة، وبه سوف تصبح الأرض ذات يوم كلها للفلاحين... ولكن لا نذهب إلى هذا الحد. بما أننى كنت أشك فى إجابتك، إليك كيف أعددت الأشياء مع السيد *شوفالييه*. ستعمل يوم

التخزين مع *كاريول*: إنه عامل زراعى جيد سوف يعلمك الحرث، وإزالة الأعشاب، وعمل الحرث الثانى لتمهيد الأرض قبل البذر فى الخريف، الجز، والحصد، وتشكيل مزارع العنب والباقى. سوف تعيش معه ومع *طوانيت* عند السيد *شوفالييه*، ولكنك ستنام هنا، لأننى مازلت أستطيع أن أعطيك بعض الدروس فى المساء، وتعليمك أشياء سوف تنفعك فيما بعد. عندما تكبر، بما إنك ستعرف جيدا مهنتك كمزارع، سوف تجد من يستأجرك بسهولة؛ وفيما بعد عندما تؤمن ضماناتك، ستجد فتاة شريفة اقتصادية وسوف تتزوج، وسيكون كل منكما للآخر؛ وهو شيء جيد وجميل ويستحق التقدير: وهكذا هذا المنتظر.

شكرت القسيس كثيرا، ومن اليوم التالى ذهبت للعمل مع *كاريول*.

٥

مرت خمس سنوات هكذا، زاخرة تماما وبلا أى هم حالى خاص بى . من وقت لآخر كانت تراودنى ذكرى مؤلمة عن الكونت *نانزاك* وكل عذاباتى، كوخزة شوكة فى اللحم، ولكن العمل كان يضعف هذا الإحساس قليلا. فى الشتاء كنا نذهب إلى المنازل لتقشير الجوز قبل نقله إلى المعصرة، وبعد ذلك، كل بدوره، كنا نذهب لعمل الزيت فى طاحونة (معصرة) *لا جراندى*. ثم كانت هناك أمسيات، حيث كنا نساعد الجيران فى نزع حبوب قمح إسبانيا، وفى تقشير الكستناء من أجل اليوم التالى، بينما كانت النساء تغزلن والمسنون يروين الحكايات.

كانت الأشياء تسير إذن كما نأمل؛ كان الجميع راضيا عنى، وأنا ممتن كثيرا لكل من كانوا يصنعون الخير من أجلى. ولكن،" إذا كانت الحال تسير دائما حسب راحة الجميع على الأرض، لما أراد الناس الذهاب إلى الجنة"، كما كان يقول الفارس.

منذ فترة لم يكن مسرورا، الرجل الشجاع والوقور، وجد فى صحيفته أخبارا لم تكن تسره. كانت الشئون السياسية تأخذ منحى سيئا: ساقوا أربعة سيرجنت (رقباء) من *روشال* إلى المقصلة، إطلاق

النار على جنرالات، وضباط؛ اليسوعيون[٣٠] العائدون كانوا السادة فى كل الأنحاء، وقد كانوا أسيادا سيئين. كان التبشيريون الذين يرسلونهم لإطلاق الدعوة من مدينة إلى مدينة، يمارسون الاضطهاد ضد المتشككين، الجاكوبان[٣١]، مثيرى الاضطرابات أحيانا، يتم قمعهم بقسوة؛ كل ذلك كان يتسبب فى غضب عام من كل فرنسا مما كان يساعد على نمو الجماعات السرية.

– سوف ترى، كان الفارس يقول، وهو يروى ذلك، سوف ترى أن هؤلاء الألترا *ultras*[٣٢] سوف ينتهون بطرد الملك إلى المنفى.

لم أكن أعرف على الإطلاق ماذا كان *الألترا* *les ultras*، ولكن بناء على كل ذلك، كنت أتصور أنهم لابد أن يكونوا نوعا من الملوك على شاكلة الكونت *نانزاك*.

لمن كانوا يشاهدون التبشيريين، كان شيئا مؤكدا، إذ فى *مونتنياك* نصبوا صليبا فى ساحة الحصون، تماما فى المكان القديم لشجرة الحرية[٣٣]، وبمواعظهم العنيفة، وخطبهم عن الكراهية،

---

(٣٠) أعضاء جماعة يسوع، تحت إمرة البابا فى ١٧٧٣و أعيد تأسيسها عام ١٨١٤.

(٣١) الجمهوريون المناصرون للثورة بشراسة.

(٣٢) أعضاء حزب "ultraroyaliste": تحت الإصلاح، المتشددون من أنصار النظام السابق، المعارضون لدستور ١٨١٤.

(٣٣) نصب رمزى لشجرة فى ساحة القرية للاحتفال بانتصارات الثورة.

نجحوا في تهييج عدد كبير من الخبثاء ضد الوطنيين المعروفين بانتمائهم للثورة.

قلت إن الفارس (الشريف) لم يكن سعيدا من سير الأحداث، ولكن سريعا ما أصبح لدى القسيس ما يشكو منه.

بعد عدة أيام، أحضر ساعي بريد *مونتينياك* خطابا مغلقا بشمع بنفسجي، قادما من *بيريجو* بعد أن اطلع القسيس على محتواه، جاء للقاء الفارس وقال له إنه يحتاج إلى إرسالي إلى *جرانفال*.

– هو لك أكثر مني، قال الشريف، لا داعي للاستئذان.

بعد أن ارتديت ملابسي بسرعة، قال لي القسيس:

– سوف تذهب إلى *جرانفال* لمقابلة *راي سوف* تقول له إنني يلزمني ١٠ إيكو مقدما من اتفاق *سانت جان*. ليس ضروريا العجلة: ثم هناك وعد غدا، سيكون ذلك مبكرا بقدر كافي.

هكذا، رحلت قاطعا أقصر الطرق، عبرت الغابات لما بعد *فانلاك*، وسرت مباشرة إلى *جرانفال*، مرورا بـــ *شامبور*، *سانت ميشيل ولاك فيال*. عندما وصلت، لم تستطع زوجة *راي* أن تتذكرني.

– لا يمكن أن تكون أنت، *جاكو*!

وأخيرا، بعد أن ذكرتها بكل ما حدث، فترة نكباتنا، انتهت بأن اقتنعت. *راى* الذى جاء بعد مدة قصيرة، تعرف عليَّ فورا، وقال لى:

ـ ها أنت كبرت، أيها الصغير!

فى المساء، تناولت عشائى مع هؤلاء القوم الأبطال، ثم جعلونى أرقد. أن أكون فى هذا المنزل حيث قبض على والدى المسكين فيه، فكرت طويلا فى أشياء حزينة، ثم نمت أخيرا. استيقظت فى الساعات الأولى من الصباح. أعطانى *راى* العشرة إيكو ورحلت، دون أن أشرب كأسا واحدا وأتبادل الأنخاب معه.

يجب أن أقول هنا، إننى منذ بعض الوقت، عندما كنت أرى صبيا أو فتاة يتنزهان بمفردهما فى الطريق، أو يتحدثان، يوم الأحد فى المدينة متشابكى الأيدى، معبرين عن مشاعرهما، كان ذلك يدير رأسى ناحية الحب، ومن ثم، كنت أستغرق فى التفكير فى الصغيرة *لينا*. أتساءل هل مازالت فى *بويبوتييه*، عما كانت تفعل، هل مازالت جميلة مثلما كانت حين كانت صغيرة؛ وكنت أقول لنفسى بأننى كنت سأصبح سعيدا بأن تكون صديقتى. حدث كل ذلك، لوجودى فى هذه الأنحاء، انتابتنى رغبة شديدة فى رؤيتها من جديد: طالت عليَّ المسافة قليلا لمرورى من *بويبوتييه*، ولكنى لم أكن متعجلا. لدى اقترابى من القرية، مهموما تماما بمعرفة ماذا أفعل كى أراها دون علم أحد، قابلت فتاة كانت ترعى أوزها، مثل *لينا* فيما مضى عندما

عرفتها. حين سألت هذه الصغيرة، قالت لى إن *لينا* خلف أغنامها، وأنها لابد أن تكون الآن فى المراعى التى دلتنى عليها. سرت إليها، ولدى اقترابى، رأيتها وحيدة تعمل فى التريكو مستندة إلى شجرة على الحافة، بينما كانت الأغنام تأكل العشب القصير. دون ضجة، جئت بالقرب منها:

- أوه! *لينا* ! هى أنت إذن!

- قالت وهى تتعرف علىَّ وقد احمرت تماما: جاكو!.

هكذا حدثتها عن أخبارى وعرفت أخبارها، وعرفت أشياء كثيرة: بأن جيرال العجوز تزوج والدتها، وبأنها أصبحت الآن ابنة ربة المنزل.

هذا الخبر لم يسعدنى إطلاقا: كنت أفضل أن أعثر عليها فقيرة مثلى؛ ولكن بالنسبة للباقى، كنت سعيدا لرؤيتها ثانية وكأن الزمن لم يمض. كانت لاتزال لطيفة، *لينا*. كانت الآن فتاة جميلة، متوسطة الطول، قوية، ووجهها جميل. كان منديل رأسها يظهر شعرها الكستنائى الفاتح؛ كانت عينيها البنية الرقيقة تحيطها أهداب طويلة ترمى ظلا على وجنتيها المشعرة قليلا مثل حبة فراولة فى الغابة، كانت أسنانها البيضاء تظهرعندما تضحك:

- ما أجملك يا *لينا* !

- تقول هذا كى تمزح، *جاكو!*

- لا، أقسم لك، أقول ما أفكر فيه.

- هكذا يقول كل الصبية.

- آه! يوجد إذن من يقولون لك ذلك؟ قلت، وأنا توخزنى الغيرة.

- لا نستطيع أن نمنع ذلك؛ ولكن ما من شيء يجبرنى على تصديقهم.

- وأنا، هل تصدقينى؟

- أنت فضولى يا *جاكو*!... قالت ضاحكة.

- اوه! اسمعى يا صغيرتى *لينا*! منذ ثمان سنوات لم أرك خلالها، كنت أفكر فيك كثيرا. كنت أتخيل أننى سأراك مازلت ساذجة، برأسك الصغير المجعد، تحرسين أوزك على الطرقات، رقيقة مثل عصفور الغابات. كلما كبرت، كانت أفكارى تدور حولك؛ والآن بما أننى رأيتك، لن تخرجى أبدا من رأسى، مهما حدث!

- أوه! *جاكو*! أنت متملق.... ومن أين إذن تعلمت أن تتكلم هكذا؟

وهكذا رويت لها قصتى كلها، وأنا ألعن الكونت دى *نانزاك* وأمدح الشريف، وشقيقته، والقسيس *بونال*، الذى علمنى. كنت ألاحظ أن ما أرويه لها كان يسعدها، وبأنها كانت مسرورة لأننى تعلمت

قليلا عما كنت عليه فى تلك الفترة حين كنت أعيش فى هذه المنطقة، حيث كان يمكننا أن نبحث فى مساحة كبيرة حول الغابة دون أن نجد فلاحا يعرف القراءة. من وقت لآخر كانت ترفع عينيها على، دون أن تترك عمل جوربها، وكنت أعلم أنها لم تكن تكرهنى، لا شيء إلا فى نظرتها التى كانت تفصح عن كل مشاعرها، الطفلة المسكينة.

عند الحديث عن القسيس، تذكرت أننى كنت أثرثر هناك منذ ساعتين، وأننى يجب أن أذهب. ولكننى أردت أولا أن تخبرنى *لينا* أين يمكننى أن أراها ثانية. أن أذهب لأكلمها الأحد فى *بار*، عند خروج القداس، والدتها التى كانت دائما موجودة، لن تجد ذلك مناسبا، هكذا كانت تعتقد.

-وإذن، ألن أراك مجددا أبدا؟

- قالت لى: اسمع، يجب أن أذهب إلى *أورياك* يوم *سانت-ريمى*، فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس، مع إحدى الجارات.

-سأذهب إذن لصلاة *سانت – ريمى*.

وأخذت يدها وأنا أنظر إليها بحب:

-أوه يا *لينا*! أنا فى هذه اللحظة سعيد حقا ... الوداع!

وفى نفس الوقت، جذبتها قليلا إلىّ، وقبّلتها، فاحمرت تماما.

- أنت تستغل طيبتى، جاكو!

قبّلتها مرة ثانية، وذهبت، ليس دون النظر فى كثير من الأحيان ورائى.

وعند رحيلى، كنت أشعر أن لى أجنحة، وبأن كل أحاسيسى نمت فجأة. كنت أرى البلاد أجمل، الأشجار أكثر اخضرارا، والسماء أكثر زرقة. اكتشفت فى داخلى قوة لم أكن أعرفها حتى ذاك اليوم. فى بعض الأحيان، عند وصولى أسفل أى مرتفع، كنت أحتاج لصرف هذه الطاقة؛ فكنت أتسلق جريا بين الأحجار والأعشاب الشائكة، ولدى وصولى إلى فوق، كنت أنتصب، فتحتا أنفى منتفختين، وكنت أنظر، بغاية الفخر، للمرتفع القاسى الذى تسلقته.

عندما عدت إلى القسيس كان يثرثر مع الفارس.

- أنا، مندهش تماما من ذلك، كان يقول: " بحق الجحيم ماذا يريدون منك؟"

- لا شيء جيد، دون شك. يوجد هنا حصن لهؤلاء الثعالب الجيزويت (اليسوعيين)، الذين سيجعلوننى أخدم فى الأسقفية.

فى صباح اليوم التالى، اقترض القسيس فرسة الفارس، وأحذيته ذات الرقبة(بوت)، امتطى الجواد ورحل إلى بيريجو عبر الطرق المتقاطعة، مرورا *بسانت – جيراك*.

عندما عاد القسيس بعد الغد، عرفت من وجهه أن هناك خطبا. ولدى سؤاله لو أن رحلته كانت جيدة، أجاب:

- أجل، *جاكو*، فيما يخص الرحلة نفسها.

لم أجرؤ على سؤاله عن المزيد، وأخذت الفرسة إلى الإسطبل.

ما إن علم الفارس (الشريف) بعودة القسيس، جاء إلى منزله في الأبرشية لمعرفة ما حدث، في المساء حكى لأخته كل شيء. بعد قيام الثورة أقسم القسيس للنظام المدني(٣٤) للأسقفية، وها هو بعد ثلاثين عاما، يحاولون مضايقته على ذلك؛ نعم، ويطلبون منه سحب تصريحه العلني.

هو، رد على الأسقف بأنه أعلن فيما مضى هذا القسم، لأنه لم يكن معجبا بعقائد الكنيسة (المسلم بها)؛ وبأن ضميره لم يكن يؤنبه من هذه الناحية، وبأنه لم يكن مستعدا لأي تراجع علني أو سري.

على ذلك، صرفه الأسقف، بأسلوبه ككاهن أكبر للكنيسة، وهو يدعوه للتفكير جيدا قبل التورط في صراع حيث سيتحطم فيه مثل الزجاج.

- *الألترا* (المتشددين) المتطرفين الكنسيين في الكنيسة، أي اليسوعيون وأتباعهم، سوف يخسرون الدين، كالمتشددين الملكيين الذين سيخسرون الملكية! أضاف الفارس (الشريف) بطريقة ختامية.

---

(٣٤) قانون ٢٤ أغسطس ١٧٩٠ الذي كان يلزم أعضاء الكنيسة (موظفو الدولة) بالقسم للنظام.

- وماذا سيفعل القسيس؟ سألت الآنسة *هيرمين*.

- لا شيء؛ يقول إنه ينتظرهم.

ومع ذلك، لو أنه عرف كل ما كان يقوله هؤلاء البؤساء عنه وعن الآنسة *هيرمين*، كما عرفت فى أثناء عودتى من عيد *أورياك*، ربما لم يكن بكل هذا الصبر.

إذ إننى ذهبت إلى هناك، لتلك الصلاة *لسانت- ريمى:*

فى اليوم التالى، بعد تناولنا غداء مبكر قالت لى الآنسة *هيرمين:*

- هاك عشرة سول[٣٥] لتتصرف كصبى.

شكرتها كثيرا وشعرت بسعادة غامرة. قبل الوصول إلى *الكاتر- بورن* بربع ساعة، سلكت طريقا قصيرا ومررت على قرية *ليشرى*، ثم بمحاذاة جدران حديقة قصر *بوبويه*، الذى نزلت منه إلى وادى *لا لورانس*، حيث توجد كنيسة *سانت- ريمى*، على بعد ربع ليو[٣٦] أعلى *أورياك*.

عندما تجاوزت طاحونة (معصرة) *بوبويه*، وكنت على المرتفع الصغير الذى يعلو الوادى، توقفت، محاولا العثورعلى *لينا*

---

(٣٥) مليم قديم.

(٣٦) وحدة قياس طول قديمة تبلغ ٤ كم تقريبا.

فى هذا الجمع من البشر الذى كان يحيط بالكنيسة، ولكنى لم أستطع. لذا انطلقت فى السير، حتى وصلت إلى الكنيسة وبدأت البحث فى كل هذا الشعب. ربما منعتها "كلبة حراستها[٣٧]!..." من المجىء، فكرت. بينما كنت هناك منزعجا تماما من تلك الفكرة، ها هو موكب الحج يصعد القرية، فى الطريق الذى تحفه الأشجار الكثيفة . بينما كنت أنظر لأرى إذا كانت *لينا* بين الصفوف سمعت صوتا ورائى يقول:

- حسنا، هو يفكر فيك كثيرا!

التفت فجأة، ورأيت *لينا* مع فتاة أخرى.:

- ها! ها أنت! وكيف حالكما، أنتما أيضا؟ أبحث عنك منذ فترة طويلة؛ أين كنت؟

- وصلنا للتو.

- لذلك قلت لنفسى: "لو كانت هنا لرأيتها بالتأكيد!"

وها نحن أخذنا نثرثر نحن الثلاثة؛ ليست أشياء شديدة الأهمية، ربما، ولكن يكفى أن نكون مع من نحب لكى نستمتع. بينما كنا ندردش، وصل الموكب. على رأسه، كالمعتاد، الحاجب حاملا الصليب، رجل قصير أسمر كوميدى، وكان يستمتع مقدما، كان هذا واضحا فى عينيه اللامعتين، بما سيحمله له هذا اليوم. بعد ذلك على

---

(٣٧) المقصود بها الأم.

صفين، الحجاج الأكثر تقوى، الذين خرجوا من سماع قداس فى الأبرشية، وجاءوا أيضا إلى قداس *سانت – ريمى* أكثر تقديرا ذاك اليوم.

كان يأتى وراء صفى الحجاج الطويلين، القسس، منشدين التراتيل؛ البعض يضعون أردية لها أجنحة، والأخرون بأردية مزينة بورود مطرزة؛ ثم، الأخير، قسيس الأبرشية، فى ثوب ذهبى فضفاض على شكل معطف له قلنسوة وذيل، وكان يحمل الكأس المقدس المغطى.

دخلنا بعدهم الكنيسة التى كانت مزدحمة رغم كبر حجمها. على مائدة صغيرة مغطاة بنوع من المفارش، بجانب المنشدين، كان يوجد تمثال *لسانت – ريمى* من الخشب، الذى كان يبدو عليه أنه من صنع صانع قباقيب *أورياك*، لشدة ما كان ردىء الصنع.

أريته *للينا* وأنا أهمس فى أذنها:

– لكنت صنعت أفضل منه كثيرا بمنجل.

– انصت للقداس، قالت وهى تبتسم.

كان قسيس *أورياك* الذى يرتله، أو بالأحرى الذى ينشده، رجلاً مسنًا رمادى الشعر، جيد المظهر وأيضا أخضر. كان يخدمه طفلان من الجوقة ويساعده أيضا قسيسان يضعان زيا، كانا ينحنيان بشدة، الأيدى مضمومة، كانا يقبلان الأشياء قبل أن يعطوها له، وهو

يرفع رداءه حين كان يركع، وفى النهاية يمارس العديد من الطقوس من هذا النوع. وأنا الذى لم أر قط إلا قداس القسيس *بونال*، الذى كان احتفالا أكثر بساطة، وجدت كل ذلك غريبا. كانت تشارك فيه الكثير من النساء بحيث إنه مع كل تلك الطقوس استمر القداس لفترة طويلة؛ ولكنه فى النهاية انتهى ولم أكن غاضبا.

-قلت *للينا* وصديقتها: لنخرج، بعد أن رأيت الناس يخرجون منذ مدة طويلة.

وما إن خرجنا، تنفست بعمق، سعيدا بوجودى فى الهواء الطلق. تنزهنا طويلا فى البندر وفى الساحة؛ حيث كانت ترقص أشجار الدردار الضخمة. رقصت رقصة قروية (جماعية يشترك فيها عادة ثمانية من الراقصين فى مواجهة بعضهم بعضا) ورقصة شعبية مع *لينا*، وكذلك مع *برتيل*، وها نحن الثلاثة على الطريق؛ أنا و*لينا* يتشابك إصبعنا الصغير، كما هى العادة بين المحبين، عند صعودنا نحو الكنيسة حيث دخلت بمفردى. انتهت الاحتفلات، وتم منح البركة، وذهب القسس.

عندما خرجت وجدت الفتاتين قد رجعتا من التنزه قليلا وحدهما، تحدثنا عن الرحيل، بالطبع أردت السير معهما قليلا، إذ بالكاد استطعت التحدث بهدوء مع *لينا* وسط هذا الجمع.

سرنا معا نحن الثلاثة، نتبع فى البداية طريق *أنجولام* الطويل فى *سارلات*، الذى يمر فى الوادى العميق، على طول مراعى *بوبيرى* وفى *كاتر بورن*. كنت أمسك *لينا* من وسطها وبيد واحدة، أسير بغاية البطء متحدثا معها فى أمور شتى؛ كم كنت سعيدا بهذا اليوم، كل المتعة التى نلتها بقضائه معها، وأيضا ماذا يمكن أن نفعل كى نلتقى مرة أخرى. كانت *برتيل* تسير بجوار *لينا*، ولكن كانت الفتاة الطيبة تتظاهر من وقت لآخر بجمع الزهور من على جانبى الطريق، وتظل فى الخلف قليلا لكى تتركنا نتسامر على راحتنا. عندما أصبحنا فى *الكاتر بورن*، كان يجب علىَّ أن أتركهما، ولكنى قلت *للينا* :

- سأذهب معكما قليلا.

وها نحن تابعنا الطريق الذى تخطه العربات عبر غابات الكستناء الكبيرة. كنا منهمكين فى الحديث تماما، *لينا وأنا*، بحيث إننا أصبحنا بالقرب من *أورليجى* دون أن نلاحظ. ولكن التى لم يكن معها رفيق، قالت لى:

-يجب أن تتركنا هنا، من الأفضل ألا يرانا أحد معا فى القرية.

أزعجنى ذلك كثيرا، وبما أننى كنت أشعر أن ذلك أعقل؛ خشية أن تتعرض *لينا* للتأنيب، تركتهما بعد أن قبّلتهما، *برتيل* أولا، وصديقتى الحميمة أطول كثيرا من الأخرى قالت لى ضاحكة:

- أنت تريد إذن أن تأكلها!

تركت *لينا* عند هذه الكلمات، ورحلنا. أما أنا، فتوجهت إلى اليسار، لكى أنزل فى الوادى الآتى من أسفل *بار*، وتبعت مجرى *توناك*، الذى ليس إلا قناة حتى معصرة *جراندى*. وبصعود المرتفع الصخرى بين أشجار الأرو المتناثرة، أصبحت بعد قليل فى *فانلاك*.

بعد عدة أيام، وصل خطاب آخر مغلق بالشمع البنفسجى مثل الأول. عندما قرأه القسيس الذى كان سيد نفسه، لم يتعثر؛ طوى الخطاب وذهب ليتنزه فى الحديقة، مستغرقا فى التفكير، وبعد ساعة ذهب لمقابلة الفارس (الشريف).

هو لم يأخذ الأشياء بصبر كبير كالقسيس، وصرخ، بمجرد أن عرف الموضوع، كان عارا، وفوق ذلك حماقة (وفوق البيعة حماقة)؛ قد يكون الأسقف (المطران) فقد عقله للقيام بمثل هذا العمل، أو أنهم خدعوه؛ وهو عن نفسه، فلن تطأ قدمه القداس أبدا – فى غضبه – أطلق الكلمة – بما أن المنافقين يطردون من الكنيسة أفضل قسيس فى الأبرشية.

اليوم التالى كان الأحد، صعد القسيس إلى المنبر للمرة الأخيرة. عندما أعلن لأبناء رعيته، أنه بناء على قرار مولانا المطران، كان موقوفا ولن يتلو القداس أبدا، حتى هذا الأحد، ولن يدير الممارسات المقدسة إطلاقا، حدث فى الكنيسة المزدحمة بالناس هيجان من المفاجأة واستمر لغط مبحوح لم يعد القسيس قادرا على التحكم فيه لبرهة.

بعد الصمت، أظهر بأنه كان واجبا على الجميع، الرعية والقسيس، الرضوخ لسلطة المطران؛ بالنسبة له، لم يكن ضميره يؤرقه لأى شيء، لأنه تصرف دائما، ليس من أجل المصلحة الشخـصية، ولكن من أجل سلام الكنـيسة، سينصاع دون مقاومة ولا تذمر. ولكنه أضاف بأن هذه الطاعة كانت ستكلفه كثيرا لأنه كان يحبهم جميعا كأنهم أبناؤه، وكان يتمنى أن يسمعهم لمدة طويلة كلمات الرب، وأن يرقد فى النهاية فى القبر الصغير الذى قاد إليه الكثيرين سابقا. تكلم طويلا هكذا، بالكثير من الحب والخير بحيث تأثر الجميع والنساء، عيونهن مبللة، كن يتمخطن بصوت مرتفع. ولكن، بعد انتهاء الانفعال، وصل الغضب لأقصاه، وعند الخروج من الكنيسة، تجمهر الناس وقالوا فيما بينهم بأنه لا يجب ترك القسيس يذهب. الجميع، بعضهم بعضا، رفعوا أعناقهم بحيث إن الكثيرين من الأكثر تصميما ذهبوا لرؤية شريف *جالبيرت* (الفارس)، الذى مازال غاضبا، رغم أنه كان سيدا مهذبا. هو، رأى ما كان يدور، صعد على

درجات الصليب القديم، وبدأ ينصح الناس. قال لهم بأن سلوك قسيسهم، صبره، وانصياعه في هذا الظرف يثبتان كم كان جديرا بحبهم واحترامهم.

-يجب إذن أن يوجه كل الرعية عريضة للمطران لكي نطلب منه الاحتفاظ بقسيسنا.

في اليوم الذي تلاه، حمل الفارس نسخة مطبوعة بشكل رائع، وذهب إلى *بيريجو* لإعطائها للمطران.

الأخير، حين تعرف على سيد *جاليبرت*، فهم بعد قليل أنهم جعلوه يتصرف بحماقة؛ ولكن، بما أن رجال السلطة لن يعترفوا بسهولة أنهم أخطأوا، الأساقفة أقل من الآخرين، مولانا أصر على قراره؛ رغم كل ما استطاع قوله له الشريف، الذي ترافع بحرارة عن قضية صديقه. عشية عودته، القسيس، الذي كان يعرف جيدا تأثير الإكليروس، وكان يعرف أن مشوار الشريف سيكون بلا فائدة، أرسلني إلى *لاجرانفال* للحديث مع *راي* لكي يأتي للقيام ببعض الترتيبات. جاء *راي* بعد ثلاثة أو أربعة أيام، وبما أنه لم يبق له إلا عام على الإيجار، فقد وافق على فسخ العقد، والعودة إلى أملاكه في *بواسونوري،* مقابل تعويض صغير. سار كل شيء كما يجب، فرجع، وبدأ القسيس يفكر في الانتقال، لأن رفض المطران، الذي سريعا ما

أصبح معروفا فى كل الأبرشية، ألهب الرؤوس؛ ولم يشأ أن يتسبب فى أى فوضى.

تم الاتفاق بينه وبين الفارس على أن ألحق به فى *لاجرانفال*، بناء على طلبى. بقدر ما شعرت ببعض الأسى لرؤية ما يمر به، وجدت العزاء بفكرة اللحاق به وأن أكون مفيدا له.

فى اليوم التالى، مر القسيس *بونال* على كل منازل القرية لكى يودع كل واحد، دخل الحقول لكى يكلم الناس الذين كانوا فى العمل، ولم ينس أحدًا، غنيا أو فقيرا. فى المساء، عاد متعبا، نظر بحزن لمسكنه الكنسى الخالى، وتناول عشاءه ونام عند الفارس (الشريف).

فى اليوم التالى، بعد الغداء، أخذ القس *بونال* عصاه، يرافقه مضيفيه، سار نحو *لاجرانفال*، كان الثلاثة يسيرون ببطء كأنهم يؤخرون لحظة الفراق، يتبادلون من وقت لآخر الكلمات. عندما وصلوا إلى ساحة حيث كان منتصبا صليب صغير من الحجر منذ القدم، توقف القسيس وكان وداعهم الأخير. الشريف الذى كان أقل قبولا من مرافقيه، يهاجم قرار الأسقف، بينما كانت الآنسة *هيرمين*، تجفف عينيها بمنديلها، والقسيس ينظر للأرض وهو يدق بعض الضربات بعصاه.

– أصدقائى، قال وهو يرفع رأسه، لن نكون مسيحيين طيبين لو لم نعرف كيف نتحمل الظلم. هذا الرمز المقدس، أضاف مشيرا إلى صليبه، يعلمنا الاستسلام: بأن إرادة الله يجب أن تنفذ!

وبعد أن تبادلوا القُبل الأخوية، بدأ القسيس يهبط الوادى الخشن. كانت أحجار الطريق تتدحرج تحت قدميه وهو يتكئ على عصاه كى يتماسك. شيئا فشيئا صغر حجمه الكبير فى البعيد وأخيرا اختفى في أعماق الغابة. وحينذاك رجع الشريف وشقيقته اللذان تبعاه بعيونهما إلى منزلهما فى حزن.

فى حوالى الساعة الخامسة مساء، وصل القسيس إلى *لاجرانفال*، حيث استطعت، بمساعدة *فانتيل*، أن أنظم كل شيء تقريبا، المنزل القديم كان كبيرا جدا؛ كان به مطبخ واسع، حجرة جميلة كان يمكن أن يوضع بها أربعة أسرة، واثنين صغيرين. ألقى القسيس نظرة على الترتيب، ويبدو أنه وجد تحت سقف الأسرة القديم ذكريات طفولته، إذ ظل مستغرقا فى التفكير مدة طويلة أمام النار.

بعد العشاء، تحدثنا عن طريقة إدارة الأرض، وأطلعت القسيس على أفكارى حول هذا الموضوع. أكدت له بأننى كنت كفيلا بالقيام بالعمل بمفردى، وعلى أكمل وجه؛ ولكنه أجابنى بأنه لم يكن يعتزم البقاء خاملا، وأنه رغم الستين عاما الماضية، كان قويا ويأمل

فى مساعدتى. فى حوالى الساعة الثامنة أطعمت الأبقار، إذ إن *راى* ترك المواشى كما هى العادة. بعد ذلك، ذهب كل منا للنوم.

فكرت كثيرا قبل أن أنام، فى طريقة إدارة الأعمال الأكثر فائدة للمنزل. كنت أفهم أننى يجب أن أنقل من أقصر الطرق وأسرعها وأن أعمل كثيرا، إذ إن الملكية لم تكن كبيرة، تساوى اثنى عشر ألف فرنك على الأكثر، والبلد، بالضبط فى نصف الغابة، لم تكن من أفضلها. ولكن الشجاعة لم تكن تنقصنى، وكنت أشعر بالفخر والسعادة بأن أكون مفيدا للقسيس وإظهار امتنانى له. ثم، يجب أن أقول، رغم أننى كنت حزينا لما يمر به، فإن السعادة بشعورى أننى أكثر قربا من *ليثا* كان يعطينى القوة. بالتأكيد، لو كان الأمر بيدى، لكنت رجعت معه إلى الكنيسة فى *فالالاك*، بغاية الفرح لرؤيته سعيدا. ولكن بما أن ذلك لم يكن ممكنا، كنت أعزى نفسى بالتفكير فى القرب من صديقتى الطيبة. الرجل فى أعماقه أنانى؛ كل ما يستطيع أن يفعله هو أن يتغلب على نفسه عندما يناديه الواجب.

٦

في هذه الأثناء، كنا مطمئنين تماما في *لاجرانفال*. كانت هذه الحياة المرتبطة مباشرة بالأرض تناسبني؛ كنت أحب دفع أبقاري الجميلة في الحقل الذي كان يقطعه المحراث، غرز حذائي في الأرض النضرة، يتبعني كل الدجاج الذي جاء يأكل الدود من الأرض الزراعية المقلوبة. حتى الأعمال المتعبة في الموسم الصيفي كانت تضحكني، مثل الحصاد. في المساء، في وقت الحصاد، عندما كنت، بعد تحميل آخر حزمة على العربة، أرى كل هذا القمح الذي كان يجب أن يصنع خبزا جيدا بنيا ولذيذا كانت لدي مثل حركة فخر صغيرة، في التفكير بأنني أنا من صنع كل ذلك، أو تقريبا كله.

مع هذا، *جان* الفحام، أصبح مسنا جدا على قضاء الليالي في مراقبة الأفران في الغابة، كان قد عاد إلى منزله في *موريزسي* بعد أن ربح بعض النقود، وكان يأتي لزيارتنا أحيانا. كان رجلا شجاعا، خدوما، كالذي أظهره في مسألة والدي، والذي منذ ذلك الحين أصبح مهتما بي. كان يعطيني نصائح من أجل استثمار الربح، ولم أكن أرفضها، إذ إنني رغم كل ما أتقنت القيام به من أعمال تحتاجها الأرض، لم تكن لدي الخبرة الكافية لتوجيهها بالتأكيد في كل الظروف، وهذا الرجل البطل كان يساعدني بالضبط لهذا السبب.

أتذكر حقا، أننى فى كل هذه التغييرات، لم أنس *لينا*. الأحد التالى بعد مجيئنا إلى *لاجرانفال*، ذهبت إلى القداس فى *بار*. كان القسيس يرتل الإنجيل عندما وصلت وبقيت داخل الكنيسة، ألقى نظرى فى كل الأنحاء لكى أرى صديقتى الجميلة. بالبحث المتفحص، فى النهاية رأيتها على يمين منبر الوعظ، ولكنها لم تكن وحدها، كانت معها والدتها. عند الخروج، وقفت أمام الباب وانتظرتها. كانت الناس منتشرة فى المكان، على شكل جماعات صغيرة وشرعوا فى الحديث بعد التحية والمجاملات: عن الرجال، عن الزمن، عن شكل الحصاد، أسعار الأبقار فى سوق *تينون* الأخير؛ النساء، عن غسيلهم، عن نجاحهن فى تثمين ديك (عن طريق القيام بخصيه)، وعن بناتهن.

فجأة خرجت *لينا*، رأتنى وقامت بحركة: ولكن والدتها لم تعرفنى بالمرة، ما لم يدهشنى، إذ إنها لم ترنى منذ كنت أحرس الأوز مع ابنتها. وقفتا كى تثرثرا مثل الآخرين، الأم مع امرأة أخرى، *ولينا* مع *برتيل*، التى فى لحظة ما التفتت لكى تنظر إلى، مما جعلنى أفهم أننى كنت موضوع الحديث. وبعد لحظة، دون أن يبدو عليها شيئا، جاءت *برتيل* ناحيتى، وفى أثناء مرورها بجوارى وأنا أتنزه، تسكعت وهى تنظر إلى ديك البرج (برج الأجراس)، قالت لى بصوت منخفض:

- إلى صلاة العصر، لن تكون والدتها فيها.

- حسنا!

وقفت أتفرج على لعبة الرماية، ساكبا نظرة نحو *لينا* بين الحين والحين.

حوالى الساعة الثالثة، عند الخروج من الصلاة، ظلت الفتاتان تثرثران لبعض الوقت، فى انتظار انصراف معارفهم؛ ثم ذهبتا بهدوء وأنا بعدهما بقليل، قمت بلفة من طريق آخر، فلحقت بهما.

وكانت الضحكات، وتشابك الأيدى، حميمية إلى ما لا نهاية. ثم، حيث إنهما كانتا متعجلتين على معرفة كيف أصبحت هنا، كان يجب أن أقص لهما كل ما حدث للقسيس *بونال*، وأوضح لهما أننا جئنا للإقامة فى أملاكه *بجرانفال*. دهشا بأن قسيسا لم يعد قسيس وألا يضع رداءه الكهنوتى. أما عن محاولة إفهامهما بأن السبب أنه أقسم بالولاء فى عهد الثورة، وعن معنى ذلك القسم، فلم يكن سهلا، قلت لهما باختصار بأنه كانت توجد مجموعة قسس آخرين اسمهم الجيزويت (اليسوعيين) ألد أعداء القسس القدامى الوطنيين، وبأنهم قاموا بتحطيمه.

وسرنا نحن الثلاثة ببطء ونحن نتحدث، فى الطريق الصخرى المحاط من الجانبين بسور من الأشجار الرديئة؛ حيث يمتزج العوسج والأشجار الشائكة وأنا بينهما، أمسكهما من ذراعيهما، ولأقل الحقيقة أشد أكثر قليلا جانب *لينا*. لم يطل الوقت، حتى وجدنا أنفسنا بالقرب

من *بوبوتييه* دون أن ننتبه؛ ولكن *برتيل*، دائما حريصة، حذرتنا، وكان يجب أن نفترق بعد الكثير من التوديع والقبلات ونظرات الحب.

ظل هذا الوضع لبعض الوقت دون أى صعوبات. كلما سنحت لى الفرصة، كنت أذهب إلى *بار* أيام الأحد وأرافق الفتاتين. كانت المسكينة *برتيل* غير مندمجة كما قلت لها، بسبب وجود صديقها الحميم فى الجندية؛ ولكنها كانت تصبر، مثل نساء بيريجو عندما تكون الكتيبة فى الريف. بما أنها كانت ترافقنا دائما، لم يكن ممكنا أن يحدث ما يسىء فى مقابلاتنا. ولكن توجد ألسنة السوء فى كل مكان حتى *بار*. لاحظ أحدهم تصرفاتنا وأخبر والدة *لينا*، بحيث إنها فى أحد أيام الأحد، عند الخروج من القداس، لاحظت أنها كانت تنظر إلىَّ بقوة. ولكنها مع ذلك لم تغضب حينذاك من ابنتها؛ سألتها فقط من أكون، أين أقطن، وعما كنت أفعله.

روت *لينا* كل شىء بلا مواربة، فقالت لها والدتها إنها لا تجد ما يضير فى الحديث معها، ما دامت أنها تفهم أن ذلك كان دائما شريفا. وهنا، أضافت بأنه يلزمهم خادما كبيرا وقويا كما كنت، لكى يستثمر أرضهم، حيث إن *جيرال* أصبح الآن كهلا.

عندنا كان كل شىء يسير كما ينبغى. تقريبا كل أيام الأحد، كان *جان* يأتى لتمضية اليوم فى *جرانفال*، ويرافق *بونال*. وكان ذلك

يسليه قليلا، إذ إن *جان*، بما أنه عجوز، فقد كان يذكره بأشياء من زمن صباه، وبكلمة، وباسم أحيانا، بأحداث منسية منذ مدة طويلة كان تستيقظ في ذاكرته. هذه الأيام، كان *جان* يبقى للعشاء، وفي المساء على المائدة، كان يغذينا بأشياء متعددة، ويمتعنا بقصص مسلية، وملاحظات لم نفكر فيها قط عن أنفسنا.

هكذا كانت تمر جيدا أوقاتنا في *لاجرانفال*، عندما بدأ *بونال* يعتاد حياته الجديدة.

في البداية كان ينتابه حزن شديد، ولم يكن يتكلم قط؛ ولكن شيئا فشيئا انتهى ألمه، وبوضعه بهدوء في الموضوع، كان ينطلق في الحديث معنا عموما عن أشياء من الماضي. بل إنه كان طيبا إلى حد أنه، لكي يجبرنا، كان سيفعل مع ذلك، حتى لو لم تكن لديه رغبة كبيرة. أنا، كنت أرى أن ذلك كان يحدث بشكل جيد، كنت أعمل بلا هم، مسرورا لوجودي بالقرب من *لينا*، دون أن أفكر أنني اقتربت أيضا من كونت *دي نانزاك*، أو بالأحرى دون أن أقلق من هذا الاقتراب.

في إحدى أمسيات الشتاء، كنت عائدا من تقطيع الأشجار لتجهيز التبن لمواشينا. بدأ النهار يختفي، وفي الغابات التي كانت تحف الطريق الذي كنت أسير فيه، كان الظل يهبط بطيئا. كنت أسير

بلا ضجة، فأسى على كتفى، أفكر فى حبيبتى *لينا* ، حين سمعت تقريبا فجأة، خطوات حصان مسرعا خلفى.

أتتنى فكرة سريعا بأنه كان كونت *نانزاك*، ولكنى استمررت في السير دون أن ألتفت. لم أكن مخطئا؛ عندما أصبح على بعد عدة خطوات منى صاح فىّ بوقاحة:

- ها! أيها البائس، هل أنت منزعج؟

صعد الدم إلى رأسى كأنه ضربة من مضخة، ولكنى تظاهرت بعدم السمع؛ فقط عندما أحسست على رقبتى بأنفاس الحصان، التفت فجأة، ممسكا اللجام باليد اليسرى، وبالأخرى رفعت فأسى:

- هل تريد إذن أن تسحق الابن بعد أن قتلت الوالد فى المعتقل؟ أجب، أيها *الكروزات* الشرير!

لم أر فى حياتى رجلا بمثل هذه الدهشة. فى العادة كان الفلاحون يتعجلون فى الوقوف جانبا عندما كان يمر، خوفا من إلقائهم أرضا، أو على الأقل، لتجنب تلقى إحدى ضربات السوط: وقد كان أيضا مذهولا. ولكن أكثر ما أرعبه، كان ذلك الاسم *كروزاك*، المخفى بحرص، هذا الاسم للجد الجابى اللص، الذى يلقيه فى وجهه ابن الفلاح ردا على وقاحته.

وضع سوطه فى حذائه (ذى الرقبة) وأخرج سكين الصيد.

الحصان، حيوان متوتر، كان ينبش الأرض ويهز الرأس.

- أترك لجام حصانى، أيها الغلام الشرير!

كان يهزنى الغضب:

- ليس قبل أن أبصق مرة أخرى فى وجهك التعس، اسم جدك كروزات اللص!

ولدى ترك لجام الحصان الذى كان مهتاجا، قمت بقفزة للوراء ووجدت نفسى فى الغابة، ممسكا دائما بفأسى مرفوعا.

ظل ثابتا لبرهة، شاحبا بغضب بارد، عيونه حانقة، يبلل شفتيه ويحاول الانقضاض علىَّ. ولكن الحصان، رغم أنه كان مستثارا بشدة، تراجع فزعا لدى رؤية الفأس المرفوعة. مدركا أنه لن يستطيع طرحى مباشرة، وبأن الأشجار كانت تحمينى:

- ستدفع ثمن هذا، أيها العزيز الشرير!

- لا يهمنى منك *كروزات*.

مرة ثانية هذا الاسم الذى يصيبه بالجنون: نغز حصانه واختفى.

عندما رويت ما حدث فى المنزل، انزعج *بونال* بشدة، متنبئا تماما بأن هذا الرجل المتناهى الغرور، الشرير، سيسعى للانتقام بعنف من الفلاح المسكين الذى أجبره على الخروج من جحره.

- قال لى: يجب أن تحترس، ألا تغامر بالذهاب ناحية *هارم*، وبالأخص لا تمر على أراضيه، ولا على غابته.

تبعا لنصيحته، وأيضا فكرتى، حينما كنت أذهب إلى الحرث حيث كان يمكن أن أقابل كونت *نانزاك*، كنت أحمل معى عصا ضخمة، أو بندقية قديمة من الحجر ورثها *بونال* عن أجداده، ولكنه لم يستخدمها قط، فهو فى حياته، هكذا كان يقول، لم يقتل أى كائن حى. هكذا كنت حريصا، بحيث مضت ستة أو سبعة شهور دون أن أرى الكونت ثانية، لو لم تكن مرة من بعيد. من وقت لآخر، كنت أرى *ماسكريه* أو الحارس الآخر اللذين كانا يبدو عليهما أنهما يراقبانى عن بعد، ولكننى لم أكن قلقا منهما، ثم كان لدى شيء آخر يشغلنى عنهما.

عندما نكون مغرمين، كل الأفكار تدور حول الحبيب، وتتصرف الخطوات مثل الأفكار؛ وأيضا لم أكن أفوت أى فرصة لرؤية *لينا*. كانت والدتها تحاول دائما أن تكسبنى، ومن أجل ذلك كانت تتبهرج بأفضل ما تستطيع، ورغم ذلك لم تكن إلا أكثر قبحا، مما كان يضحكنى بين نفسى، مفكرا فى مقولة *الفارس* (*الشريف*):

للحمارة العجوز، فرملة ذهبية.

عندما أكون بمفردى مع *لينا*، كنت أروى لها كل ما كانت تفعله والدتها لكى تجذبنى عندهم، دون أن أشرح لها، هذا مفهوم، سبب كل هذه الصداقة. وكانت حينذاك الصبية المسكينة تقول لى:

- أترى، *جاكو*، أنا أحبك كثيرا، وتفكر إذا كنت سأسر بأن تبقى معنا، حتى نتزوج؛ ولكن لو تصرفت هكذا، لو تركت رجلا مثل القسيس *بونال*، الذى أنقذك من البؤس، الذى علمك كل ما تعرف، لن أكلمك أبدا.

- اطمئنى، يا حبيبتى *لينا*، سأقطع أحد أصابعى قبل أن أقوم بمثل هذه الخيانة.

ومع ذلك، كم كنت سأسعد بالحياة بجوارها والعمل من أجلها! دائما بنفس نواياها، كانت *ماشتيف* تطلب منى مرارا مساعدتهم فى جز الحشيش وتجفيفه، أو بحفر الأرض حول أشجار العنب، وكنت مبتهجا على الأخص بالوجود قرب *لينا*، كنت أذهب إليها، فى إجازة *بونال*. وعندما كنت أحضر لحرث الأرض فى الشتاء، المساء، فى العشية، كنت أساعد فى تقشير الكستناء، وكنت أرحل متأخرا، إذ إن *لينا* لم تكن تضع الحطب قط واقفا فى المدفئة، كما تفعل الفتيات اللاتى يردن التخلص من حبيبهن.

ولكن الأشياء لا تسير وفق رغبة البشر؛ قد تسير بشكل رائع، أو ربما، مرات، أسوأ. لمدة طويلة، كانت *ماشتيف* تحدثنى عن رغباتها وتجعل الآمال تلمع فتبهج قلبى رغم أننى كنت مدركا أنها ليست صادقة فى كلامها معى عن *لينا*: لطالما كنا مرتاحين ونحن نترك أنفسنا مشدودين فى مثل هذا العمل! ومن ناحية أخرى لم تكن تتأخر فى تغيير لغتها. ذات يوم أحد، كان يوم عيد الظهور[٣٨]، وبما أننى كنت موجودا، أمام كنيسة *بار*، منتظرا كالعادة خروج القداس، وصلت إلى العجوز وجذبتنى بعيدا، دون أن تمهلنى، تقول لى إنه، بسبب تكرار رفضى مرات عديدة، فقد استأجرت خادما، وبذلك يجب علىّ أن أفهم أن المشاريع التى توقعتها لى لم يعد فى استطاعتها الالتزام بها؛ وهى تأسف كثيرا على ذلك، فقد كانت تفضلنى دائما.

-والآن، أكملت، لم يعد مناسبا أن تتحدث مع *لينا*.

بسماعى ذلك، وقفت مذهولا، أنظر إليها بإمعان، كما لو أننى لم أفهم. ومع ذلك، تمالكت نفسى سريعا وأخبرتها أننى وإن لم يعد مسموحا لى بالتحدث مع ابنتها، فلا أحد فى هذا العالم يستطيع أن يمنعنى من أن أحبها، مادمت أحيا.

– قالت لى: فى هذا، لا أستطيع شيئا، ولكنى لا أريدك أن تأتى إلى المنزل، أو أن تقابلها فى الخارج.

---

(٣٨) عيد ظهور السيد المسيح يوافق ٢ فبراير.

ذهبت *ماشتيف* بعد أن قالت ذلك، وانضمت إلى ابنتها التى كانت تنظر إلىَّ بحزن من بعيد، وأنا، كنت مصدوما تماما.

هذا الخادم الذى استأجرته كان صبيا من *سيجينى*، كان يعمل لديهم كعامل باليومية وكان يناسبها. كان متشردا قويا أكتافه عريضة، قصيرا وعريضا، وجهه غبى، ومع هذا كان يتظاهر بالمكر. بالنسبة للباقى فقد كان عنيفا غير قادر على المشاعر الطيبة، وفيما عدا مصلحته، لا يرى إلا الأشياء التى تقلع عينيه. سريعا ما لاحظ أن *ماتشيف* تراه بعين جيدة، وكان ذلك فى البداية، شرع فى التصرف كسيد، ويأخذ هيئة من يأمر. سرعان ما بدأ يلبس مثل دون جوان القرية، قمصان جيدة من نسيج رقيق، وربطة عنق من الحرير، وقبعة رمادية، وسترة جميلة وأحذية ذات عنق (بوت). لم يمر عليه شهر فى *بويبوتييه*، إلا وعرف بكيس النقود الذهبية الذى تملكه *ماشتيف*، مما جعله يرقص بمهارة. عرف كل الجيران بعد قليل ما كان يحدث؛ ومع ذلك بناء على نصائح المرأة العجوز، كان يتظاهر بالحديث مع *لينا*، لكى يخفى لعبته، ولكنه كان أغبى من أن يخدع أحد.

وأيضا لأنه غبى، هذا الصبى، المدعو *جيلهام*، فقد فهم بعد مدة قصيرة، أنه كان سيستطيع مع العجوز أخذ أشياء كثيرة، يسحب منها

اللويس الذهب[٣٩]، واحدا تلو الآخر، لكى يذهب ليثمل يوم الأحد فى *بار*، والثلاثاء في *تونون*، وثم للمجون فى الاحتفالات الدينية هنا، ولكن لأن كل هذه الثروة التى كانت ملكا *لجيرال*، كانت ستؤول إلى *لينا*، بما أن العجوز كان يعرفه وهو متزوجا من *ماشتيف*. وكانت هذه الثروة التى تجعل هذا المتشرد راغبا، بما أنه كان يقول لنفسه، بأن *جيرال* مات حديثا وهو ما حدث بعد قليل، وستظل *لينا* مالكة كل شيء، وإذن الوداع للاحتفالات! كان عليه أن يلاحقها. وأيضا يتظاهر بالتفانى فى خدمتها وخاصة أمام الناس، وكان يقول للعجوز، الملتهبة من الغيرة، والتى نصحته بنفسها بأن يلعب هذه اللعبة، بأن ذلك كان ادعاء حتى يمنع العالم من الثرثرة. كانت *ماشتيف* تشتعل من الغضب لاضطرارها لتحمل ذلك، وكانت تنفس عن غضبها فى ابنتها، لا تكف عن الصياح فيها وإعطائها بعض الصفعات أحيانا.

وبعد مدة قليلة، باحثا دائما عن الوصول إلى نهايته، قال *جيلهام* إلى *ماتشيف* إن الوسيلة الوحيدة لإسكات ألسنة الناس، كانت بالزواج من *لينا*. ولكن العجوز لم تقبل ذلك، وبدأت فى الصراخ عاليا. كانت تحتمل جيدا بكل قوتها أن يتظاهر نصابها بالتزلف لابنتها؛ أما أن يتزوجا، فكانت مسألة أخرى. كانت الفاجرة ترتاب فى

---

(٣٩) لويس: قطع نقود ذهبية كانت تساوى ١٠ جنيهات ثم ٢٤ جنيها تم صكها فى القرن الثامن فى عهد الملك لويس وخلفائه. وفى عهد نابليون(عام ١٨٠٣) كانت تساوى ٢٠ فرنكا.

أنه ما إن يتزوج *جيلهام من لينا*، سوف يتركها فورا، فرفضت بشدة وحسم. ولذلك فهو، غاضب، صدها بغلظة، وكلما زادت من حسن معاملته ومن ملاطفته لكى تهدئه، أمعن فى تعنيفها بقسوة. كانت *لينا* المسكينة تتلقى ردود أفعال كل ذلك، إذ إن والدتها عاملتها بكراهية، حتى أنها وصلت إلى حد ضربها. أنا، الذى كنت على علم بما يحدث، سواء منها، أو من *برتيل*، كنت منزعجا بشدة لمعرفة أنها حزينة هكذا، وكنت أعانى لدرجة أننى لم أكن أستطع النوم، أحيانا، ليلة بأكملها. كانت تواتينى كثيرا فكرة ضرب هذا *الجيلهوم*، وكانت يداى تتوقان لذلك، ولكن *لينا* كانت ترجونى ألا أفعل شيئا، وأنا لا أحرك ساكنا خشية أن أجعلها أكثر تعاسة.

ومع ذلك، ذات يوم، لم أستطع أن أتمالك نفسى، جذبته فى ركن، فى *تونون*، وأعلمته أنه فيما يخص *ماشتيف* وأموالها الذهب كان يستطيع أن يأخذها كما يشاء، فهذا لم يكن يعنينى؛ أما *لينا* فقد منعته من الانشغال بها نهائيا.

-وانتبه، أكملت، أنك إذا تجرأت وعرضتها للبؤس،أو للتودد، سأسلخ جلدك!

كان أقوى منى، ولكنه كان جبانا، وأقسم لى بأغلظ الأيمان بأنه لم يقل لها قط ما يريب، بالطيب أو بالسيئ. كل ما كان يفعله هو أنه كان يمنع والدتها عن ملاحقتها.

-يمكنك أن تسأل *لينا*، هى نفسها ستخبرك.

-ها أنت على أى حال قد أنذرت! قلت له، وأنا أنصرف، مستاء من جبنه وكذبه.

وحينذاك، حدثت لنا كارثة فى *جرانفال*. ذات صباح، فى أثناء خروج *بونال* من البيت لكى يذهب لجمع الكستناء، أصيب بأزمة وسقط بعنف. بعد أن حملناه إلى فراشه، جعلته يستنشق خلا، بينما رفعت له *فاننتيل* رأسه؛ ولكنه مات بعد عدة دقائق دون أن يستعيد وعيه.

جاء *جان* العجوز فى ذلك الوقت، وبعد كلمات النواح الأولى رجوته بالعودة إلى *موروزى* وإرسال أحد جيرانه فى *فانلاك*، لإبلاغ السيد شوفالييه فارس (شريف) *جالبيار*. أنا، قمت بإبلاغ العمدة وفى نفس الوقت أوصيت بتابوت.

عندما عدت، كان *جان* قد وصل، وبقينا نحن الثلاثة *فانتيل* معنا، نسهر على الميت.

حوالى الساعة السابعة، سمعنا فى الفناء خطوات حصان، وذهبت مع *جان*: كان الشريف. بينما كان *جان* يسحب الفرس إلى الإسطبل، اقتدته إلى غرفة المتوفى، وهو أخذ معطفه.

– قال وهو يقترب من السرير: صديقى المسكين!.

وانحنى، قبّل برفق جبهة الميت الباردة. ثم وقف وسألنى كيف حدث، وبعد أن رويت له هذه النكبة، جلس على الكرسى الذى قدمته له *فانتيل*، ظللنا نحن الأربعة صامتين ومهمومين.

هكذا مرت تلك الليلة الطويلة. أنا الذى لم يكن من عادتى، لم أستطع البقاء جالسا مدة طويلة، قمت وذهبت إلى الفناء أحرك ساقى بينما كانت الرياح تضرب وجهى كالسوط، رأيت سحبا كبيرة سوداء، كانت تمر فى السماء المغطاة باللون الرمادى، وتغرق فى الليل.

عندما ظهرت أول خيوط النهار خلال الزجاج، وجعلت شعلة الشمعة التى كانت تضىء لنا تشحب، سألنى الشريف إذا كنت قمت بما يلزم من أجل الدفن. أجبته بأننى باستثناء إبلاغ العمدة والتابوت الذى طلبته، لم أرد أن أفعل أى شىء، منتظرا رأيه. وهكذا شرحت له أن *بونال* كان يقول لنا إنه يريد أن يدفن فى نهاية الممر، تحت شجرة الكستناء الضخمة هذه التى زرعت يوم ميلاد والده، وسيكون من الأفضل تحقيق رغباته، عما لو حملناه إلى المقابر- بسبب الكراهية سوف يضعه القسيس في الركن الحقير المليء بالعوسج (أشجار شائكة) والأشواك- المحجوزة لمن يقتلون أنفسهم(٤٠).

تفكر الشريف لحظة ثم قال لى:

---

(٤٠) ينتحرون.

-فلنفعل ما أراده ميتنا المسكين. كنت أعرف العمدة، لم يكن رجلا يقلق من خرق صغير للقانون الذى ربما حتى إنه كان يجهله؛ من ناحية أخرى، لو ظهرت بعد ذلك أية صعوبات، سأحرص على حلها.

عند سماعى هذا الكلام، خرجت، وأخذت معولا وجاروفا، وذهبت عبر الممر. توقفت الأمطار؛ وكان الجو صحوا، وفى الوادى الصغير تحت *الجرانفال*، كان يطفو على المراعى المليئة ببرك من الماء المائل للون الأبيض بخار خفيف قادم من النافورة. وصلت تحت شجرة الكستناء الضخمة، وبدأت بحزن فى حفر الحفرة وأنا أفكر أنها كانت آخر خدمة أقدمها للمتوفى الذى أدين له بالكثير.

فى حوالى الساعة العاشرة، بعد أن انتهيت، عدت إلى المنزل، وفى اللحظة التى فتحت فيها بوابة الفناء، رأيت الآنسة *هيرمين* قادمة، على حمارتها التى كان يمسكها كاريول. عندما دخلت غرفة الميت، أخذت غصن من شجرة البقس[٤١]، ألقت مياها مباركة على الجسد، ثم ركعت بالقرب من السرير تماما، أحنت رأسها، وصلت طويلا. عندما وقفت، مسحت عينيها نظرت للميت قائلة:

---

(٤١) شجيرة أوراقها قوية لونها أخضر غامق توجد عادة فى الحدائق والغابات صلبة جدا، كنبات الغار. تستخدم فى أحد الزعف. مثل ورق النخيل. مقدسة لارتباطها بظهور يسوع.

-فى هذه اللحظة، انتهت كل آلامه!

عند الظهيرة تقريبا، أخذت *فانتيل،* التى كانت قد وضعت دجاجة فى قدر، قليلاً من المرق إلى الآنسة *هيرمين* التى لم ترد شيئا أكثر؛ ولكن الشريف أكل قليلا من الحساء وشرب كأس نبيذ.

فى حوالى الساعة الثانية، جاء قاضى الصلح مع ضابطه يضع الشمع. تركنا نأخذ ملاءات من خزانة البياضات لكى نكفن المتوفى، ثم أغلق كل شىء، الحجرات، والأدراج والدواليب. بعد أن انتهى، تحدث قليلا مع الشريف وهما يتجولان حول المنزل، ثم رجع.

لم يحضر النجار، كنت فى الأمام، وبعد قليل رأيته من بعيد، سائرا خلف بغله الذى كان يحمل التابوت المربوط عكسيا، وهو يمسك اللجام بتكاسل. وصل إلى المنزل، وضعت التابوت فى الغرفة، وبعد أن دخلت بجانب السرير من جهة الجدار، كان الفارس فى الجهة الأخرى، مررنا ملاءة تحت الجسد بادئين بالرأس، ثم نحن الأربعة، مع *كاريول وجان،* رفعناه من على السرير لنرقده فى التابوت، حيث وضعت الآنسة *هيرمين* وسادة. ثم بعد أن ألقينا آخر كلمات الوداع للنبيل المسكين القسيس *بونال،* أسدل الكفن عليه؛ بعد ذلك، ثبت النجار الغطاء وشرع فى تسميره. كانت فى هذه الضربات من الشاكوش– فى هذه الغرفة التى حتى الآن لم نتحدث فيها إلا بصوت خافت كأننا نخشى إيقاظ الميت– شىء من العنف يؤلم الأذن.

فى هذه الأثناء كان النهار يوشك على نهايته: بعد وضع التابوت على مقعدين، مررنا مناشف مبرومة من الأسفل وخرجنا من المنزل. لم يوجد غريب، لا أحد، باستثناء شحاذتين مسنتين من المنطقة، اللتين كان *بونال* يحمل إليهما من وقت إلى آخر بعض أقراص الخبز أو قطعة من اللحم من أجل حسائهم.

وبينما كنا نحن، حاملين التابوت، نسير فى الممر بخطوة ثقيلة وموزونة، كانت هاتان العجوزتان، مسبحتهما فى أيديهما، يتبعان الآنسة *هيرمين وفانتيل* التى كانت تحمل المياه المقدسة. حيث إننا كنا بالقرب من آخر الممر، حملت إلينا الرياح الصوت البعيد لأجراس *سانت- جيراك* التى كانت تدق لصلاة العذراء. كان يبدو أن صوت الدين، يرتفع فوق مآسى هذه الأرض، مباركا القسيس المسكين ضحية أحقاد زملائه. وصلنا إلى حافة الحفرة، تم وضع التابوت على الركام، وانتظرنا.

حينئذ أخذ سيد *جالبيار*، الواقف، كتابا من يدى أخته، وتلا *الدى بروفنديس* *Le profundis*(٤٢) (كلمات لاتينية) وصلوات من أجل الموتى؛ ونحن جميعا تضامنا مع رغبته، كنا نوجه تفكيرنا الأخير فى الرجل الشريف والطيب الذى كانه *بونال*. اختتمت الصلوات، أنزلنا التابوت فى الحفرة، والشريف (الفارس)، بعد أن

---

(٤٢) "*Des Pronfondeurs*"، صلاة من أجل الموتى.

قال كلمة الوداع الأخيرة للميت، أخذ الغصن وألقى بضع قطرات من المياه المباركة فوق، ثم حفنة من التراب. نحن الآخرون من بعده، قمنا بالكثير، وبينما كان التراب ينهال على الصندوق فى صوت غير مسموع، كانت الآنسة *هيرمين*، على ركبتيها، تصلى بحرارة.

بعد أن ردمت الحفرة بمساعدة *كاريول*، عاد الجميع إلى المنزل. ثم عاد الشريف وشقيقته إلى *فانلاك*، يسبقهما *كاريول* الذى كان يحمل مصباحا. المسنتان، بعد أن أخذتا الصدقة المعتادة، عادتا إلى أكواخهما؛ ورجع *جان* إلى منزله، وبقينا وحدنا *فانتيل* وأنا.

فى صباح اليوم التالى، ذهبت أرفع الطمى لكى أغطى مقبرة *بونال* بالعشب، بينما كانت *فانتيل* تصنع صليبا من الخشب لنضعه فوقها، شرعت فى العمل، إذ إنه رغم دخول الموت إلى البيت، فإن الأحياء مجبرون تماما على استئناف مسيرتهم المعتادة.

عندما عاد القاضى لإزالة الشمع، كان يرافقه شخص، نصف ريفى، نصف سيد، الذى كما قال لنا الضابط كان ابن عم ثالث *لبونال*. كان هذا الرجل ينظر إلىّ بشكل سيئ وزوجته أيضا، لأنهما سمعا أن ابن عمهم ترك لى كل أملاكه. أنا لم أكن أعرف شيئا على الإطلاق بل حتى لم أفكر فى ذلك قط، ولكن الشريف (الفارس)، الذى كان يعرف نوايا المتوفى، قال ذلك للقاضى، يوم وضع الشمع (التشميع) وهذه الأشياء تبقى بصعوبة سرية تماما.

خزانة البياضات مفتوحة، في الدرج الأوسط، حيث وجد المفتاح بين ملاءتين، اكتشف القاضي ورقة كانت الوصية وفتحها، وقرأ:

"أعطي وأتنازل لجاك فيرال، المدعو جاكو، كل أملاكي الثابتة والمنقولة بلا استثناء بشرط أن يرعى ويطعم ويتكفل معه، مثل أمه الحقيقية، خادمتي فالنتيل طوال حياتها".

"بونال، قسيس *فانلاك* السابق".

أبدى ابن العم دهشة غاضبا، وزوجته التي كانت اقتربت سابقا من الخزانة لكي ترى لو أن بها نقودا، رمقتني بنظرة غاضبة كأنها ستقفز في وجهي.

– لسوء حظ جاكو، أضاف القاضي، الوصية لا تصلح لأنها غير مؤرخة.

" أترى يا بني، قال وهو يريني الورقة. سوف نكمل، أضاف، ربما وجدنا واحدة أخرى".

ولكنه لم يجد شيئا على الإطلاق، بسعادة ابن عمه الكبيرة وزوجته التي ما إن انتهى البحث، حتى أغلقت كل الغرف، والخزانات وراجعت كل المنزل لكي تتحقق من الإرث. صعدوا إلى الصومعة ليروا إذا كان موجودا بها الكثير من القمح، ونزلوا إلى القبو، حيث لم يكن موجودا إلا برميلا له ثقب، ذهبوا بعد ذلك إلى

الشونة لتقدير المواشى وكل شيء، مستمتعين بالفرصة الجيدة التى واتتهما، إن بونال لم يكن له أقارب آخرين.

-لذلك، قالت حينذاك المرأة، كنت أعتقد أن لدى قسيس سابق كان سيوجد بياضات أكثر فى الدواليب.

-وأنا، أضاف الرجل، كنت أتصور أنه يوجد خمر أكثر فى القبو.

فى هذه الأثناء قلت *لفانتيل:*

-يا عزيزتى لم يعد علينا إلا تحضير أمتعتنا.

وبسرعة، لم نشأ أن نبقى ساعة إضافية مع هؤلاء القوم، لشدة ما أفزعنى جشعهم، جمعت أغراضى وكذلك فعلت *لفانتيل*. ولكن، فى لحظة الرحيل، قالت لنا المرأة:

-وماذا تحملون فى لفافاتكما؟

-لا شيء من مقتنياتكم، أيتها المرأة اللطيفة، لا تخشى شيئا.

عند خروجنا من المنزل، سألت *فانتيل:*

-أين فى اعتقادك ستذهبين فى هذا الوقت؟

-وأين تريدنى أن أذهب، إذا لم يكن عند السيد الشريف؟ سيعتنون بى حتى أجد مكانا، أضافت بحزن.

المسكينة *فانتيل!* اقتربت من الستين، ولم تعد خفيفة جدا، وكان عليها أن تذهب للعمل لدى الأغراب، فى الوقت الذى كانت ستحتاج فيه لبعض الراحة.

- قلت لها: سوف أصحبك إذن، ولكن قبل ذلك سنمر على *جان* سأضع لفافتى عنده.

لدى وصولنا رويت *لجان* قصة الوصية، فقال :

- كان *بونال* شريفا فاعتقد أنه تكفى معرفة رغبته. كان عالما كبيرا فى العديد من الأشياء، ولكنه لم يكن يعرف هذا القانون، المسكين! ماذا تريد، لقد رغب فى خدمتك، وأنت تدين له بنفس الالتزام.

- وهذا ما أفعل؛ أوكد لك أننى سأذكره دائما بنفس الامتنان كما لو أن مشيئته تحققت.

- الآن، استأنف *جان*، لا أعرف ما تريد أن تفعله؛ ولكن يمكنك أن تبقى دائما هنا؛ ستحصل على خبز ولن تنام فى الخارج.

- شكرا، عزيزى *جان*، أريد حقا، الآن، ولكن يجب أولا أن أرافق *فانتيل* حتى *فلزلاك*.

وضعت لفافتي، وأخذت الخاصة بالمرأة العجوز التى كانت تجلس على الدكة، مطبقة يديها على ركبتيها، منحنية الرأس.

وهكذا، قامت وذهبنا باتجاه *فانلاك*، *معلقا* بندقية *بونال* القديمة التى أعطاها لى.

فى أثناء السير، كنت أفكر، من جانبى، أن الشريف والآنسة سيرغبان ربما فى الاحتفاظ بى، على سبيل الشفقة فقط، إذ إن أرضهم لم تكن كبيرة لدرجة أن تحتاج لخادم آخر احتياطى مثل *كاريول*. لذلك بعد أن سرنا طويلا أصبحنا فى *لابلوجى*، قلت *لفانتيل*:

-ها أنت تقريبا وصلت، سوف أرجع حتى لا أسافر فى الليل.

-وإذن، ألن تأتى حتى فانلاك لتروى للسيد شوفاليبه ما حدث؟

-عزيزتى *فانتيل*، سوف تروين له أنت بالتأكيد ؛ أنا لن أذهب إلى هناك اليوم: أترى الشمس بدأت تغيب... هيا الوداع! سأحضر خلال أيام.

وتركتها، عائدا إلى *موروزيس*.

كان منزل *لاجرانفال* برجوازيا كبيرا وجميلا مقارنة بمنزل *جان* الذى لم يكن به إلا غرفة واحدة، تضيئها نافذة صغيرة. وكانت كل الأرضية مفروشة بالتراب، بها ثقوب فى أماكن متفرقة هنا وهناك، وبروزات حيث كانت القباقيب تترك طينا من الخارج. كانت المدفأة منخفضة وعريضة تدخن من أى رياح، إذ إن العوارض وألواح الصومعة كانت بالأسود الفاتح : كأننى عدت إلى *كومبونافر*.

عندما وصلت، كانت الوقت قد تأخر. فى ضوء الشمعة، رأيت *جان* جالسا فى ركن المدفأة، ينعش النار تحت الحلة المتدلية من العلاقة[٤٣].

- قال لى: صنعت قليلا من الحساء، بالتأكيد نضج؛ خذ جزءًا منه، وأنا سأقطع الخبز.

وواقفا، فتح مقبضا كبيرا فى المائدة وأخرج منه رفا إضافيا لتكبير حجم المائدة، ثم أخذ يقطع الخبز فى سلطانية من الفخار البنى المقطوب فى عدة أماكن.

- أترى- قال لى، وهو يرينى الجزء المجوف من الوسط وكانت له قرنان مثل الهلال - أسنانى سيئة، لا أستطيع أن آكل إلا اللبابة؛ وأنت، ستأكل الجزء الخارجى (المقرمش).

كنت في غاية الجوع، لم آكل شيئا منذ يومين، لشدة ما هزنى موت *بونال* المسكين. ولكن عندما نكون شبابا، نعانى دون جدوى، سريعا ما تحتج المعدة. بعد أن انتهينا، شربت على دفعة واحدة كوبا من الماء، وجاء موعد النوم. كان سرير *جان* سيئا، إذ لم يكن له إلا مرتبة واحدة محشوة بورق الذرة وكذلك بورق الغوش[٤٤] من أجل

---

(٤٣) جذع حديد له سن لتعليقه بأى ارتفاع داخل المدفئة وله مشبك أو عقافة لتعليق الحلة.

(٤٤) شجر يزرع فى الأراضى الرملية، فى المناطق الباردة والمعتدلة، أوراقه صغيرة؛ ويستخدم خشبه فى صناعة الأثاثات الراقية والورق.

الأوجاع، وفوقها غطاء؛ ولكنه كان عريضا للغاية، تقريبا مربعا، مثل تلك الأسرة القديمة التى كان ينام عليها أحيانا أربعة، ونمت هنا كالسنجاب فى الشتاء.

فى اليوم التالى، حمت حول *بوبيوتييه* لكى أرى *لينا*، مترقبا من بعيد اللحظة التى تصحب فيها حيواناتها إلى الحقول. عندما رأيتها تخرج من الفناء، تدفع نعاجها وعنزتها أمامها وتستدير نحو الوادى الكبير، تحت القرية، ذهبت أختبئ فى غابة مجاورة، كان يوجد بمحاذاتها انحدار ملىء بمجموعة من العلائق البرية، أشجار البرقوق البرى والكرم البرى، حيث جاءت تحط فى ملجأ من الرياح.

بقيت هناك وقتا قصيرا، أنظر إليها، دون حراك، ثم لفت انتباهها بصفارات صغيرة جعلت كلبها يجرى نحوى نابحا. بعد أن أظهرت نفسى أصدرت إليها إشارة لتأتى فى مكان حيث لا يمكن أن يرانا أحد، وعندما فعلت، هدّأت كلبها، قبّلتها طويلا، احتضنتها بقوة، كأننى كنت خائفا من فقدانها. أحنت رأسها على صدرى، وكانت تبدو هكذا كأنها وضعت نفسها تحت حمايتى.

للأسف! لم يكن موت *بونال* الذى يضعنى فى موقف جيد لحمايتها. سمعت القصة بكل تفاصيلها، ثم تنهدت بقوة:

- مريم العذراء تعرف جيدا! أحبك سواء أكنت غنيا أو فقيرا! ومع ذلك، فأنا أتحسر على ما حدث: لو كانت وصية الأب *بونال*

صالحة، لربما كانت ساعدت على زواجنا الذى لا يسير فى الطريق السليم، كما يجب!

وروت لى آنذاك المآسى التى تلحقها بها والدتها، وشيئا كان أقسى عليها أيضا، شرف *جيلهام*، الذى كان يتولى الدفاع عنها ضد العجوز الفاسدة. كل ذلك، دون الحديث عن الحرج الذى كان لديها بسبب ما كان يحدث أمام ناظريها، إذ إن هؤلاء البؤساء ما عادا يختبئان إطلاقا، *الماشتيف* بعد أقل من عشيقها.

– قلت لها: اسمعى، إذا وصل ذلك لدرجة أنك لا تستطيعين احتمال أحزانك، وإذا لم نستطع أن نتقابل، أخبرينى بواسطة *برتيل*: أذهب كل يوم أحد إلى *بار* بطريقة أو بأخرى سنحاول حل المشكلة؛ *جان* ناصح جيد، وكذلك سأذهب للقاء السيد *شوفالييه* (الفارس) والقاضى؛ لابد أنه توجد قوانين لمنع مثل هذه الأشياء: تشجعى إذن يا حبيبتى!

وبقينا قليلا صامتين، متعانقين تماما، لدرجة أننى كنت أشعر بقلب صديقتى العزيز والصغير يخفق فى صدرها، كعصفور فتى مذهول فى العش. أخيرا بعد أن قلنا وكررنا عشرين مرة أننا سنبقى متحابين حتى الموت، مهما حدث، قبلت للمرة الأخيرة عينيها الجميلتين المبللتين، وذهبت عبر الغابة حتى لا يرانى أحد.

٧

مرت الأيام حينذاك. وصل الشتاء إلى نهايته، وفى الغابة بدأت زهور عيد دخول المسيح الهيكل وتطهير مريم العذراء (٢فبراير). مع الوقت الجميل، استطعت أن أجنى بعض المليمات بالعمل باليومية هنا وهناك، لجمع الشوفان والشعير، حفر الأرض من أجل الكرم وأعمال أخرى فى الموسم. لم أعد أسمع أى كلام عن الكونت *نانزاك*، تخلصت قليلا من حذرى، وأنا ذاهب إلى العمل أو عائد منه.

لم أعتمد على أنه نسينى، أو حتى سامحنى قليلا، ولكن، بما أن وقت طويل قد مر على لقائنا، قلت لنفسى إنه لو أراد إعطائى أو العمل على إعطائى بعض الضربات السيئة المفاجئة، لوجد بمنتهى السهولة الفرصة: ومن هنا وصلت إلى أنه لا يريد الانتقام إذن.

لم أكن أسير فى الليل دون بندقيتى المحشوة تحت ذراعى، استعدادا لسحبها، ناظرا يمينا ويسارا - أسفل الأشجار ومتجنبا الممرات الكثيفة الزرع، بقدر المستطاع. لكننا نبذل مجهودا فى حماية أنفسنا بلا جدوى، فالأكثر قوة هم الذين يختارون التوقيت، وعندما يكون لنا شأن مع مجرمين أصحاب القرار فى كل شىء، ينتهى الأمر دائما بحدوث بعض المصائب.

كان يوجد فى الغابة، فوق *لاجرانفال*، مرتفع بسيط، حيث كانت تتقاطع ثلاثة طرق ضيقة (عادة فى الحقول للدواب والمشاة). فى الوسط كانت توجد شجرة أرو كبيرة وقديمة بالكاد يستطيع أن يحتويها خمسة رجال وكنا نسميها *شجرة أرو الساحرات*. ذات ليلة، كنت هناك، جالسا على أحد الجذور الخارجة من الأرض، الشبيهة بالعامود الفقرى لبعض الثعابين الضخمة، ومسنودا على الشجرة، مدخر(٤٥) بندقيتى فى المخبأ تحت القميص، كنت أحلم.

أنظر إلى المستقبل، فوجدته ملىء بالشكوك القاسية والظلمات المؤسفة؛ ثم عدت بأفكارى للوراء وفكرت فى الحتمية التى يبدو أنها تلاحق عائلتى المسكينة، تذكرت مآسى، موت أبى فى المعتقل، وكذلك موت أمى، التى حتى هذه اللحظة، كان قلبى مازال ينزف من أجلها. وذهبت للوراء أكثر، كنت أفكر فى جدى، ملقى فى زنزانة تحت الأرض لتمرده على سيد *رينياك* وحريق القصر، أفرج عنه لحظة انتظاره الموت، عند انفجار الثورة. ودائما أستعيد الماضى، أتذكر هؤلاء الأجداد الذين نقلوا إلينا اسم الثائر، معلقا فى غابة *دروى*، عن طريق سادة *بيريجور* السوداء الذين كانوا يلاحقون بلا رحمة الفقراء الثائرين من عنف البؤس الفائق.

---

(٤٥) جزء من البلاتين فى الأسلحة النارية حيث توضع فيه الذخيرة.

بينما كانت هذه الأفكار تتلاحق فى عقلى فى فوضى، سمعت على يمينى صراخا صغيرا على بعد لثعلب يجر أرنبا بريا. جهزت بندقيتى وانتظرت. بعد ربع ساعة، رأيت الأرنب قادما دون أن يسرع كثيرا. عندما وصل، وقف على بعد أربع خطوات منى، منتصبا، الأذنان مرفوعتان، ينصت برهة لصوت الثعلب الذى كان يطارده. لاحظ أن لديه الوقت، فأخذ طريقا ضيقا بين الحقل، سار فيه خمسين خطوة، ثم أسرع داخل العشب بقفزة، ثم رجع، متخذا ممرا آخر وبعد أن كرر هذا العمل مرة ثالثة، وتشابكت طرقه تماما، ابتعد عن المنطقة، عابرا من الطريق الذى جاء منه، ثم فى قفزتين هائلتين، ارتمى بين الشجيرات واختفى.

سعدت لرؤيته يفعل ذلك: "اذهب، أيها الحيوان المسكين، كنت أفكر، انقذ نفسك لهذه المرة، ولكن احترس من الحيوان النتن الذى يلاحقك!"

سرعان ما رأيت الثعلب، أنفه فى الأرض، يجر ذيله، ملتصقا تماما بطريق الأرنب لدرجة أنه نسى حذره المعتاد. على مسافة عشرين خطوة جعلته يتشقلب، وبعد أن أوقعته، وضعته فى حقيبة ظهرى وذهبت.

كانت حوالى الساعة الثانية صباحا؛ تكاثف الضباب، وكان القمر يختفى بحيث كان الجو حالك السواد. كنت أفكر فى *لينا* أثناء

سيرى وكانت تنتابنى أفكار حزينة، كان طبيعيا جدا بعد ما عرفته عنها. أسرعت إذ كانت السماء بدأت تمطر، أخذت طريقا كان يقطع أجمة؛ حيث كان لابد أن أمر كى أعود إلى *موريزى،* عندما، وصلت إلى الوسط تقريبا، أعيقت أقدامى فى حبل ممسوك عبر الطريق؛ وبما أننى كنت أسير سريعا، وقعت على ظهرى ومعى بندقيتى. وما أن سقطت على الأرض، إلا وأناس يرتمون علىَّ يكممونننى بمنديل، وحبسوا رأسى فى كيس، وقيدوا يدى خلف ظهرى، ثم ساقى، وأخذوا سكينى منى، وربطونى بالعرض على حصان وها أنا مخطوف.

لم يكن لدى أى شك. رغم أننى لم أسمع كلمة، كنت متأكدا أنها ضربة من كونت *دى نانزاك*، وتساءلت عما سيفعلونه بى: هل سيلقينى فى هوة البحيرة؟ قريبا، اعتقدت، ولكن بالاتجاه الذى أخذناه بعد قليل، رأيت أنه لا. سرنا ساعة تقريبا، عرفت من خطوات الحصان المجلجلة أننا نمر على جسر: "جسر قنوات القصر"، قلت لنفسى. بعد لحظة، توقف الحصان، وحملونى، أو بالأحرى جرونى على درج من الحجر، ثم ألقونى على الأرض بعنف. بعد ذلك مرروا حبلا تحت ذراعاى، وبسرعة شعرت أننى كنت أهبط فى الفراغ بانسياب الحبل. بعد الهبوط الذى أقدره بثمانية أو عشرة أمتار، لمست الأرض، حيث بقيت ممددا على بطنى. فى نفس الوقت، الحبل المشدود من نهايته، صعد من جديد لفوق؛ سمعت صوتا مثل صوت شاهد قبر يسقط على الحجر، وانتهى الأمر.

"ها أنا ذا مدفونا فى زنزانات *هارم*!"، كانت تلك إذن فكرتى الأولى. ثم فكرت فى التخلص من الوضع المتعب الذى كنت فيه. ولكن الأوغاد قيدونى بحيث لم يكن ذلك سهلا. حاولت أولا الانقلاب على ظهرى، وبعد عدة قفزات، نجحت. بعد ذلك حاولت الوقوف، ولكنى لم أستطع، وعدة مرات، سقطت بثقل على الأرض. ومنهكا ومتعبا، مكثت مدة طويلة بلا حراك، ثم درت بصعوبة عدة مرات، وانتهيت بأن وجدت نفسى بجوار جدار، أعطيته ظهرى، فركت الحبال التى كانت تقيد يدى. ولكن بما أن العمل لم يكن سهلا، والحبال كانت صلبة، بحيث إننى، بعد أن فركت لمدة طويلة، توقفت، منهكا من التعب. الهواء الذى كنت بالكاد أتنفسه من خلال الخيش السميك للكيس كان ثقيلا وكثيفا؛ جاءت إلى أنفى الرائحة الكئيبة لتحت الأرض الرطب: ولكن ما من صوت خفيف أو مرتفع، حتى من بعيد، كان يصل إلىَّ: كنت داخل قبر.

أعتقد أننى كنت هناك أثير أفكارا حزينة، كنت مقادا إلى الموت البطىء من الجوع فى غياهب هذا السجن؛ كنت أعرف جيدا الكونت *دى نانزاك* لكى أشك فى ذلك قليلا. ومع هذا، لم أفقد الشجاعة، وبعد أن استرحت، بدأت بتمزيق الحبل فى الجدار، ليس دون أن أسلخ يدى كذلك. وظل هذا الحبل دائما متماسكا؛ لحسن الحظ، وجدت وأنا أتحسس الأرض حجرا أكثر خشونة من الآخرين،

بحيث إننى بعد أن فركت مرات كثيرة، لمدة عشر ساعات، على ما أظن، شعرت أن قيودى خفت، وبعد قليل أصبحت يداى حرة. أول شيء فعلته بهما هو التخلص من الكيس الذى كان يغطى رأسى، ومن المنديل الذى يغطى فمى، بعد ذلك فككت ساقى ووقفت على قدمى.

كنت دائما فى ظلام حالك، بسواد الزفت. بالسير خطوات صغيرة، يداى على الجدار، لاحظت أن الجب كان مستديرا؛ ولكن جاءتنى فكرة أوقفتنى فورا: لو كان موجودا بئر فى أرض الزنزانة؟

فكرت قليلا فى ذلك، ثم استأنفت سيرى، ببطء، بحرص، مادا قدمى فى المقدمة لكى أتأكد من عدم وجود فراغ. بوصولى للمكان الذى غادرته- الذى عرفته لوجود الحبال تحت قدمى- فهمت أننى كنت فى أسفل سافلين أحد أبراج *هارم*. بعد أن درت بالقرب من الجدار، كنت أخاطر بعبور سجنى بالسير على أربع، متحسسا بيدى الممدودة دائما، خشية السقوط فى أى بئر. أخيرا، بعد أن سرت فى كل الاتجاهات، تأكدت من وجهة النظر هذه، ومكثت مع هذا اليقين الرهيب أننى قدر لى الموت فى قاع زنزانة تحت الأرض. أتعفن بمعنى أصح، إذ إن الرطوبة كانت تقطر من الجدران، مما أكد لى أننى كنت تحت مستوى قنوات القصر.

كانت هذه الفكرة الفظيعة بدفنى حيا تمزقنى تماما لدرجة أننى، مع آلام الجوع المساعدة، لم أكن أنام. تعبت من الجلوس، وفى هذه

الأثناء لم أكن أجرؤ على النوم، إذ إن خيالى المحموم بسبب نقص النوم والطعام كان يجعلنى أخاف من النوم إلى الأبد. لذلك رغم ضعفى كنت أزحف فى الظلام على الأرض الرطبة، حاولت أن أحفرها بيدى، استنزفت فى تكبير ثقوب وجدتها، تشبه ثقوب الخلد، وفى النهاية أنهكت فتوقفت، متلاحق الأنفاس، ممددا على الأرض. بينما كنت أزحف هكذا على أربع، كنت أضع يدى على شيء بدا لى فى البداية كأنه كومة صغيرة لقطع صغيرة من الخشب الميت؛ ولكن فجأة، بعد لمسها بانتباه، ظهرت لى الحقيقة المرعبة: كانت بقايا هيكل عظمى، فسدت بفعل الزمن، فكانت تتحطم تحت يدى.

فى هذه اللحظة، أحسست باليأس يغزونى وتركت نفسى فى الأرض، مسحوقا، بالقرب من البقايا الإنسانية المدفونة فى هذا المكان منذ سنوات طويلة. ولكن بينما كنت ممددا هناك بلا حراك، إذا بخطوات ثقيلة تدوى فوق على السطح. وقفت ثانية واستمعت: همهمة بالكاد محسوسة، كصوت أناس يتكلمون من بعيد، كانت تصل حتى عمق الجب، مقطوعة بخطوات غير مسموعة وبطيئة.

كان العساكر يقومون بالتفتيش، فكرت، وعاد إلىَّ الأمل، أخذت أصرخ. ولكن فى نفس الوقت توقف الهمس، واختفت الخطوات فى البعيد، وسقطت من جديد فى صمت الموت الذى كان يلفنى منذ نزولى داخل هذا القبر. محطما من اليأس، سقطت على

الأرض؛ اختفت فظاعات المكان من عقلى المعذب، وكانت رأسى تدور وغبت عن الوعى.

أيقظنى ألم حاد بوجنتى، وشعرت بشىء يتركه ويهرب، بينما، على كل جسدى، كان لدى هيجان لأشياء مماثلة كانت تهرب أيضا، خائفة من تحركاتى.

وعلى إثر ذلك عثرت على الإجابة من ثقب وجدته بأرضية الزنزانة: كانت ثقوبا قديمة للفئران: هذه الحيوانات التى كانت كثيرة، وضخمة، حفرت فى الجدران القديمة للخنادق، دهاليز تحت أساسات البرج، ومع هذه المقدرة الرهيبة على ثقب أكثر الجدران سمكا، شمت رائحة فريسة، فكانت تسرع، جائعة. اليقين المروع بالتهامى نصف حيى بواسطة هذه الحيوانات القذرة انتهت بأن أفقدتنى عقلى. حاولت تحطيم رأسى بالجدران، ولكننى كنت عاجزا حتى عن الوقوف بل، بالإضافة إلى ذلك، القيام بالاندفاعة اللازمة. لذلك، فكرت فى الحبال التى كنت مقيدا بها، وبحثت عنها عميانيا فى هذا الظلام الدامس الرهيب، توصلت إليها بصعوبة بعد ساعات طويلة. فلما لم أجد شيئا لربط طرف الحبل به، صنعت عقدة مررت رقبتى خلالها وحاولت شنق نفسى. ولكن الصيام الطويل أضعفنى تماما بحيث سقطت ذراعاى ثانية، عاجزتين، وبقيت هنا، هامدا، ثابتا بلا حراك.

منذ أن توقفت عن أية حركة، رأتنى الفئران منهكا، فعادت بأعداد غفيرة، مستعدة للانقضاض علىَّ. كنت أسمعهم يهرولون فى الليل، وكانوا يتجاسرون حتى على قرض جلد أحذيتى. راودتنى فى هذه اللحظة فكرة اصطياد واحد لأهدئ الجوع الذى كان يعذبنى. آه! بأى شهوة متقدة كنت أحلم بتقطيع أحد هذه الحيوانات المقززة بأسنانى وبلعها نية وحية!

انتظرت، وبعد قليل شعرت بهم يتسلقون علىَّ، بحثا عن الوجه واليدين. بلا جدوى، حاولت مرات عديدة أن أقبض عليها، لم تعد لیدی الرشاقة اللازمة ولم أستطع النجاح.

حينئذ، معذبا من شدة الجوع الذى كان يعتصر أحشائى، جننت، حملت يدى إلى فمى وبشكل آلى حاولت قضمهما، ولكن لم تعد لدى القوة، ومكثت طويلا بلا حراك، كالقتيل. الآن، كانت الفئران تركض علىَّ دون أن أستطيع طردهم؛ كانت عضاتهم نفسها تتركنى تقريبا متبلدا، وأصبحت فريستهم دون أن تكون لدى القوة للدفاع عن نفسى. خيل إلىَّ أننى كنت هنا منذ ثمانية أيام؛ كانت أذناى تطن، ورأسى توقفت عن التفكير، وإرادتى استرخت، كنت أذوى، أشعر أن الحياة تفارقنى، وانتهيت بالوقوع فى غيبوبة إيذانا بموتى.

عندما استعدت وعيى، كنت فى فراش؛ كانوا يفتحون فمى برفق، ويجعلونى أبتلع قليلا من الحساء ممزوجا بالخمر، فى ملعقة.

لم تكن عيناى، بسبب عدم التعود، تستطيعان تحمل ضوء النهار، وأغلقتهما فورا. كانت يدىّ ووجهى يؤلموننى بشدة فى أماكن متعددة، حيث عضتنى الفئران، ولكننى لن أستعيد هذا الألم لأى سبب. يخيل إلىّ أن دماغى كانت ذائبة وأن رأسى كان فارغا مثل قرع العسل الفارغ (يستخدم كآنية). عاجزا عن تكوين فكرة، مكثت هنا ممددا، ليس لدى إلا التنفس، ولكن بضعف شديد. ثم، شيئا فشيئا، مع الوقت، ومن شدة العناية، بدأت أستعيد الحياة وتعرفت على *جان* بجوار سريرى.

-*ولينا*؟ قلت له بضعف.

-حسنا، سوف تراها عندما تسير على قدميك.

مطمئن قليلا، عدت إلى النوم.

بعد عدة أيام، جاء الشريف(الفارس) ورآنى أتحسن، فقال:

- فى هذه الساعة، أنت نجوت... لهذه المرة! هذا واضح، لا يفيد الكلام عنه، مثل كتاب فروض السيد *جان*. (الصلاة المفروضة فى الكهنوت).

ابتسمت قليلا وشكرته على كل طيبتهما، إذ إننى كنت أعلم أنه وشقيقته أرسلا دجاجا لصنع الحساء، ونبيذا وسكرا.

- قال: هش! هذا لا شىء، يا عزيزى جاكو.

-اعذرني، سيدى الشريف، قال *جان*، دون هذا الخمر الجيد، أعتقد أنه كان سيذهب إلى بلاد الخلد.

-آه! آه! لحسن الحظ، لحسن الحظ، أن يكون دوائى أثر، ولكن بشكل آخر ماذا يهم؟

براز كلب أو وزن نقود سيكون الكل واحد يوم الحساب!

هذه المرة ضحكت أكثر قليلا، وسعد الفارس كثيرا، ليس دون أن أرجوه بشدة أن يشكر بالنيابة عنى أخته الطيبة الآنسة *هيرمين*.

بعد شهر، كنت على قدمى، مازلت ضعيفا، لا أسير إلا خطوات صغيرة مستخدما عصا؛ ثم شيئا فشيئا، استعدت قواى. حين كنت لا أزال راقدا فى الفراش، أفكر دائما فى *لينا* ومنزعجا بشدة لعدم رؤيتها، تحدثت كثيرا عنها مع *جان* الذى كان يهدئنى دائما ببعض الكلمات ويحثنى على الصبر. فى الأيام الأولى التى أصبحت فيها بحالة تسمح لى بفهم أى شيء، سألته كيف أصبحت هنا، فى فراشه، شرح لى حينئذ أنهم عثروا علىَّ ذات صباح فى الغابة، على الطـريق الكـبير، ممددا كالمـيت، تغطى الدماء وجهى ويدى. كل ما قلته له عن المكان الذى كنت فيه أكد له أن كونت *نانزاك* هو الذى خطفنى. عرفت إذن أن الخطوات التى سمعتها فى قاع الزنزانة كانت فعلا خطوات العساكر، الذين، بناء على شكوى الشريف (الفارس)، كانوا يجرون تفتيشا فى القصر مع العمدة. جعلهم الكونت

يتجولون فى كل الأنحاء، من الكهوف إلى العلية، وقادهم إلى السجن؛ ولكن بما أن الحجر الذى كان يقفل الجب (الزنزانة) كانت تغطيه طبقة سميكة من الطين، مثل كل الأحجار، لم يشك، أى منهم، أنه يوجد واحد خفى تحت الأرض. من ناحية أخرى، كان العمدة مواليا للكونت، والعساكر كانوا يتناولون غداءهم مرات كثيرة فى القصر أثناء الجولة؛ ثم فرض عليهم هذا القاطع للطريق، الذين كانوا يعرفونه قويا، بحيث يقومون بعملهم قليلا من أجل الشكل. يجب أن يقولوا أيضا، على مسئوليتهم، أنهم بلا شك لا يعتقدون أن الكونت يستطيع أن يفعل شيئا مماثلا.

ولكن الشريف- الذى حذره *جان* مما عرفه من بعض القدامى، عن وجود زنزانة تحت الأرض في *هارم*- عاد ذات مساء إلى *مونتياك*، جعل قاضى الصلح والعساكر يتحركون للقيام ببحث جديد، بصورة رئيسية تحت السجن. انزعج تماما العساكر الذين كانوا يحسون قليلا بالتقصير، فضلا عن أن هذا الأمر كان يضع كل *مونتينياك* عرضة للأقاويل حيث الناس ليسوا متراخين.

أمام كل هذه الضجة وكلام الشريف الحاسم، أصبح مقررا القيام بتفتيش جديد صباح اليوم التالى. ولكن، فى أثناء الليل تم إرسال رسول إلى الكونت: من قبل من؟ لم نعرف قط؛ بالتأكيد، وجدونى فى الصباح، على الطريق الكبير، كما قلت، مما قطع الطريق فورا على

أى بحث جديد. ولكن، العدالة أرادت حتما قليلا كشف هذه المسألة حتى إنهم لم يحققوا معى.

أما عنى، ما إن عادت إلىّ القوة والإرادة، جددت بينى وبين نفسى القسم الأول الذى اتخذته بالانتقام من كونت *نانزاك*، ومنذ ذلك الحين، ظللت أحلم بذلك. ولكن، من قبل، كان يعذبنى شىء أكثر من الانتقام، كانت رغبتى فى رؤية حبيبتى *لينا*. أخرتنى قدرتى على السير كثيرا: لذلك، ما إن استطعت، رغم أن *جان* حاول تأجيل الأمر للأحد التالى، ذهبت إلى *بار*، وانتظرت خروج القداس كالمعتاد. خرجت *برتيل* أولا بمفردها، وعند رؤيتى، اتجهت نحوى.

- قلت لها: هل *لينا* هنا؟ دون أى مقدمات.

نظرت إلىّ بشكل متعجب بغاية الحزن بأن شيئا سيعتصر قلبى. وفى تلك اللحظة بالضبط، خرجت *ماشتيف* من القداس بملابس الحداد.

أعدت سؤالى، برهبة مروعة.

جذبتنى *برتيل* بعيدا:

- أنت إذن لا تعلم شيئا؟

- ولكن ماذا؟ أنت تقتليننى!

-خسارة! يا صديقى . لن ترى *لينا* المسكينة ثانية أبدا!.... لقد ماتت!

-وه! يا إلهى! قلت، مسحوقا بهذا الخبر.

عندئذ اصطحبتنى *برتيل* أبعد، فى طريق منعزل، وروت لى ما حدث.

لكى تحتفظ بعشيقها *جيلهوم*، الذى كان يتحدث دائما عن الرحيل لأنه كان يرى أن *لينا* عندما تصبح سيدة أملاكها، سوف ينتهى المزاح، تجاوزت *ماشتيف* غيرتها، كان تريد قطعا أن تزوجه لابنتها. كانت الصغيرة المسكينة تقاوم، بالتأكيد، إلى درجة أنه كانت توجد مشاحنات مستمرة فى المنزل وضجيجا كان يضع الجيران على الأبواب. وصل هذا إلى حد أن *ماشتيف* كانت تعكف على ضرب ابنتها تقريبا كل يوم، لكى تجبرها على الإذعان؛ من هنا حدث أنها ذات مساء أزعجتها، وصفعتها، وشدتها من شعرها وضربتها بقوة إلى درجة أنها كانت تحمل آثارا على وجهها، الطفلة المسكينة، مرعوبة، أنقذت من بين يدى أمها التعسة التى أوشكت فى لحظة على قتلها. جاءت مسرعة إلى *موروزى* لتخبرنى أنها لم تعد تحتمل، ولتستشيرنى عما يجب عمله، وجدت إحدى جاراتنا وسألتها عن مكانى.

ـ آه! أيتها الصبية المسكينة! من يعرف أين هو! ها هى ثلاثة أيام وثلاث ليال لم يره أى أحد: كان يترقب أرنبا بريا، فى الليل؛ دون شك قتلوه وألقوه فى جور.

لذلك عادت يائسة، فاقدة عقلها، كانت المسكينة *لينا* تعانى، صعدت أعلى *لاجرانفال*، وفى اليوم التالى، بينما كانوا يحملوننى من على الطريق، وجدوا قباقيبها الصغيرة على ضفاف *الجور*....

بعد أن سمعت، فررت، مجنونا من الألم، نحو الغابة، مثل حيوان يموت من جرح، ارتميت على الحشائش حيث بكيت حتى المساء، مطلقا نشيجا، أعض العشب، وأحيانا أصيح من اليأس مثل الذئب مسعور. ثم، هبط الليل، عدت إلى موروزى بلا عشاء.

منذ ذلك اليوم، بدأت أجوب القرى فى المساء، فى محيط *هارم*، هناك حيث عانوا كثيرا من سوء معاملة كونت *نانزاك*، مثل *بريس، وبساد، ومابن، ولا لاند، مارتيلا، ولو لاكان، ولا- بورداري، ومونبليزير* وغيرها. فى كل الأنحاء، ذكرت التعديات الاستبدادية لهذا الحقير، شروره، شراسته الباردة التى أساء معها استخدام قوته؛ وقاحته، ووقاحة ابنه وضيوفهما فيما يتعلق بالنساء: كنت أوقظ لدى كل شخص ذكرى لما حدث خاصة المعاناة من هذا الكريه سيد المحرمات، كنت أحاول تخليص هؤلاء المساكين من وطأة هذا الطغيان المذل، بأن أجعلهم يشعرون أنهم كانوا رجالا رغم ذلك،

وبأنهم سيتخلصون من هذا اللص، فى اليوم الذى تواتيهم الشجاعة على مقاومته وعلى رفض معاناتهم.

كان الجميع متفقا معى تماما، ولكن هناك، كان يوجد بعض الجبناء، ممن كانوا يسعون إلى تأخير لحظة الحركة، وهؤلاء على الرغم من اتفاقهم معى، كانوا يظهرون المصاعب، قائلين بأن الكونت كان قويا، وبأنه كان يفعل دائما ما يريد، وبأن الهجوم عليه كان بمثابة الهجوم على الشمس والمخاطرة بدخول المعتقل:

-تعرف جيدا، يا عزيزى جاكو، بأن ذلك كلف والدك غاليا، أن تكون عاصيا ضد الرجل الشرير!

– كنت أقول لهم حينئذ: اسمعوا، لن يقودوا إلى السجون جميع من فى قرانا؛ سيدفع الرئيس الثمن! حسنا سأتحمل كل العاقبة! من ناحية أخرى، يا أصدقائى، لم نعد فى نفس الزمن؛ لم نعد فى عام ١٨١٥، نحن فى عام ١٨٣٠، ومما سمعته من شريف *جاليبرت*، *بفانلاك* – ملك الناس الشجاعة، ذلك الرجل! – الثورة ليست بعيدة، بسبب، أولئك الذين يريدون إعادتنا للزمن الماضى، أمثال كونت دى *نانزاك*.

لمدة ثلاثة أشهر، تابعت هكذا كل البلاد لكى أرى الناس. أخيرا، لأرشدهم، لأشجعهم، انتهيت بأن جذبتهم جميعا لوجهة نظرى. عندما رأيتهم مصممين حقا، حددت لهم موعدا لليلة معلومة، فى قفار

شمال *موروزى*، فى وسطها كانت توجد كومة من الأحجار العملاقة، اسمها بير- *مال*.

منذ الساعة الحادية عشر، كنت هناك مع *جان*، وأحد جيراننا. حسبت أنه سيأتى أربعون أو خمسون رجلا، ولكننى ذهلت حقا حين رأيت قادما مع الرجال نساء بعدد كبير.

وهكذا، جعلتهم جميعا يستديرون ناحية قصر، *هارم*، جعلتهم يقسمون على طريقة أجدادنا القديمة، كما جعلتنى والدتى أقسم فيما مضى. الجميع فعل مثلى، بصقوا جميعا فى أيديهم اليمنى، وبعد أن رسموا صليبا بالإصبع الأول من اليد اليسرى، مدوها مفتوحة قائلين بصوت متوسط من بعدى:

- يسقط *نانزاك!*

-حسنا يا أصدقائى، والآن فليستعد كل واحد. فى إحدى هذه الليالى، عندما تحين اللحظة المناسبة، حين تسمعون ثلاث رنات جافة من البوق وبينهم مسافة، تتبعهم رنة طويلة، تعالوا جميعا بسرعة هنا: الانتقام سيكون قريبا وتحررنا سيكون تحت أيدينا!

وعلى ذلك، اختفى الحشد فى الغابة، وعاد كل واحد إلى قريته.

صبى شاب من *باريس*، حاذق ومقدام، كان يتردد على القصر ويطلعنى عما كان يحدث فيه. ذات مساء، بعد أن انتهينا من العشاء، *جان* وأنا، رأيناه قادما:

-كل السادة الذين كانوا بالقصر رحلوا؛ رجع ابن الكونت إلى باريس، على ما يبدو. لا يوجد الآن إلا الكونت، والفتيات، القسيس والحرس والخدم.

- قلت وأنا أقف: آه! إذن حانت اللحظة! اسمع يا بنى: سوف تطير إلى *لالاند* وإلى *ماين*، وسوف تقول *لفرنسوا* الموجود عند *البورو ولميشو* الكبير بترديد رنانتى عندما يسمعونها. بعد ذلك، سوف تذهب للاختباء حول القصر، وبعد أن تقوم بجولة حول القنوات، سترى جميع الأضواء مطفأة، ستأتى لمقابلتى فى *بير-مال*: خذ اشرب كأسا واذهب.

وأعطيته ملأ كوب من الخمر كانت باقية من التى أرسلها لنا الشريف، بلعها الصبى دفعة واحدة، مرر يده على شفاهه ورحل راكضا.

فى حوالى الساعة التاسعة، أخذت بندقية *جان*، فبندقيتى اختفت منذ حادثتى، وذهبت رأسا إلى هضبة *بير- مال*. كنا تقريبا فى نهاية شهر مايو. سرت ببطء، أحسب مع نفسى كيفية تدبير الأمر حتى ينجح.

كان هدفى مهاجمة القصر، وبعد الاستيلاء عليه، إشعال النار فيه، لتطهير البلاد من هذه العائلة المحتالة. كنت أتمنى حقا، فى الهجوم، أن أجد الكونت وأقتله مكرها، إذ إن كل الشر الذى اقترفه، لى فقط، كان يستحق الموت؛ وكم عدد ضحاياه الآخرين! هذا، احتفظت به لنفسى؛ كان يخيل لى أنه، بالكراهية المريرة التى أحملها له، كان ينتمى إلى. وكذلك كنت على استعداد لعمل المستحيل، لكى أراه أمامى، لكى أصرعه بقدمى فى حمى الغضب، فى سخونة المعركة؛ سببى الأخير فى رغبتى الشديدة بذلك، هو أننى بسبر غور إرادتى، كنت أشعر أننا إذا تسببنا فى سجنه لن أستطيع أبدا، قتله، بدم بارد، أو تركه يقتل، عاجزا وأعزل. وحتى هذا، مهما كانت كراهيتى معلنة، كان يملؤنى فخرا، لأننى وجدت نفسى أسمى من البائس الذى أراد أن يقتلنى على نار هادئة، كما يقال، بعد أن تربصوا لى بحطة وأخذونى.

وبالتفكير فى ذلك، قلت لنفسى إن الكونت لو خرج من ذلك حيا، فلن تكون أعماله أقل سوءً. فمنذ فترة سرت عنه إشاعات؛ كان يقال إنه أنفق كل ثروته، وكان يسهل تصديق ذلك، مع أسلوب حياته. كان ذلك شيئا معروفا لأنه منذ شهرين أو ثلاثة، كان يأتى مأمورون قضائيون إلى القصر، ولم يستقبلوا بشكل جيد، لدرجة أن أحدهم، عندما تحدث معه عن إقامة دعوى، اضطر إلى القفز فى القنوات، لينجو بنفسه بينما وصل الماء والطين حتى إبطيه. هذا ما سيحدث،

سوف تنتهى بقاياه فى الحريق، إذ إن شركات التأمين، كانت جديدة تماما فى ذاك الوقت، ولم تكن معروفة فى بلادنا؛ وربما يكون لهذا الرجل المغرور، لهذا الطاغية الشرس، عقابا أكثر خطورة من الموت، أن يساق هكذا إلى الفقر والعجز.

خطوة سريعة على حافة البرارى جعلتنى أنهض؛ كان صبى *باريس*.

- قال لى: كل القصر نائم.

-حسناً، يا بنى.

ووضعت بوقى فى فمى، أرسلت تباعا ناحية *لالاند*، ثم ناحية *ماين* ثلاثة صفارات مختصرة، تبعتها برابعة تذهب وهى تخبو، مثل خوار بقرة وقعت تحت يد الجزار.

سرعان، ما رد على بوقان، مطلقين فى الليل النداء المخيف. بعد قليل، وصل من هم أكثر قربا، وبعد ثلاثة أرباع ساعة، كل سكان القرى كانوا موجودين، تسعين تقريبا بحساب النساء اللاتى كن يحملن العصى، والمناجل، والمهماز. الرجال مسلحون بالبنادق، والشعب الحديد، والمعاول، والفئوس، وحداد *ميرينياك* حمل أكبر شاكوش فى دكانه.

لدى رؤيتهم جميعا هناك، جمعتهم فى دائرة، ووقفت فى الوسط، شرحت لهم فى البداية أننا لكى ننجح دون أن نستعرض

كثيرا، كان يجب أن يتم بسرعة. كل ذلك شرح جيد، حددت لكل شخص وظيفته، وافق الجميع، أضفت:

- وليكن مفهوما أننا لن نلمس شيئا فى القصر. نحن قوم شرفاء نثأر لأنفسنا، ولسنا لصوصا!

- نعم، نعم، قال الجميع فى صوت متوسط

حينذاك سألت:

- كم الساعة؟

- رفع المسنون عيونهم إلى السماء، وبين سحابتين، نظروا لوضع النجوم.

- لابد أنها الحادية عشر تقريبا، قال بعضهم.

- لنذهب، دون ضوضاء.

لحظة سيرى فى الطريق، شعرت بأحدهم يمسك بذراعى والتفت:

- آه! عزيزى *جان*، لقد قلت لك أن تبقى مطمئنا فى فراشك وأن تترك الشباب يتصرف!

- اعطنى البندقية، أجابنى: لن نفيد إلا فى إعاقتك عن قيادة كل شيء. أنا، مازال نظرى جيدا، سأراقب المرامى (الكوة التى

تطلق منها البنادق): دعنى أفعل، يسرنى أن أرى اقتحام هذا الذئب فى مأواه.

- كما تشاء إذن!

وأعطيته البندقية، ورحلنا.

سرنا فى صمت. وبمجرد أن وصلنا إلى الطريق القادم من *تونون* ويؤدى إلى *هارم*، كنا أهدأ أيضا، بحيث إننا عندما اقتربنا أصبح كل شخص أكثر حرصا. كان قلبى يدق فى هذه اللحظة؛ ليس لأننى أخاف على نفسى: منذ موت حبيبتى *ليتا*، لم تكن الحياة تعنى لى شيئا، ولتنازلت عنها بثمن بخس؛ ولكنى كنت أخشى على كل هؤلاء الرجال البواسل الذين كانوا يتبعوننى، وكنت مرعوبا من عدم النجاح، وأنا أعلم جيدا أن فى هذه الحالة سوف يجعلهم الكونت يدفعون ثمن الخسائر التى تسببوا فيها.

فى هذه الأثناء كان الآخرون قد عادوا ومعهم السلالم، فطردت هذه الأفكار، ولم أعد أفكر إلا فى فى إتمام المهمة. فى هذه اللحظة، وصلت الدعامة، ممتدة مثل وحش ضخم له ألف قدم، ودخلت إلى الفناء. فى خمسة عشر خطوة، بدأ الرجال يركضون، انقضوا على الباب، ووجهوا إليه ضربة عنيفة رنت على طول السلم، ولكنه لم يستسلم. بينما رجع رجالنا إلى الوراء لكى يتلقوا الارتدادة، ظهرت رؤوس فزعة فى نوافذ القصر، انطلقت صرخات مسموعة

وسرعان ما انتشرت الأضواء فى كل مكان فى الداخل . فى تلك اللحظة، خلخلت الباب ضربة ثانية.

- تشجعوا يا أصدقائى! سوف يستسلم! صحت.

فى نفس الوقت، أطلقت أعيرة نارية من جانبنا من بعض المتمركزين حول القصر، والذين كانوا قد صعدوا على السلالم حطموا النوافذ فى ضوضاء كبيرة.

فى أثناء تراجع حاملو الدعامة لكى يصدموا الباب من جديد، مرت أنابيب البنادق من المرامى التى كانت تحمى المدخل، وقصفت العديد من الأعيرة النارية، المنطلقة بكثرة من الداخل كذلك من جانبنا. أخذت النساء تصرخن، لرؤية رجل جريح يفلت الدعامة؛ ولكن رجلا قويا أسرع ليحل محله. أحسست أننى أصبت من هذه الطلقة نفسها على وجنتى وكتفى، ولكنى لم أهتم، بسبب الإثارة الكبرى التى كنت فيها.

- اجمدوا! صحت، اضربوا بقوة! سيسقط الباب هذه المرة!

هكذا، بدفعة شديدة، تنتعش بصرخاتهم، انقض رجالنا على الباب الذى استسلم، انخلع القفل، وتحطمت القضبان، والتوت الرزة. بما أنه كان لا يزال متماسكا قليلا أتم الحدّاد إسقاطه بشاكوشه الثقيل.

- إلى الأمام!

أمسكت بفأس أحد الرجال، ووثبت إلى السلم، يتبعنى كل الرجال الذين كانوا موجودين، البعض بفوانيس، وخطوا الدرجات أربعة فأربعة. وصلت بسرعة إلى بسطة الطابق الأول، حيث كان موجودا الكونت وبناته، وكذلك *ماسكريه*، الجميع بنصف ردائهم يتعجلون حشو أسلحتهم.

- صرخت وأنا أهجم على الكونت: آه! يا لص! بفأس مرفوعة.

هو، لم يكن قد انتهى من حشو بندقيته، أمسكها من الماسورة وحاول الإطاحة بى بضربة من عصا البندقية.

لحسن الحظ، تفاديتها بفأسى، الذى وقع، ثم سريعا، رفعته من جديد، فى وثبة غاضبة، دون أن ألتفت للكمات التى كان *ماسكريه* والفتاة الصغرى يحكمانها فى ضلوعى، بضربات قوية بماسورة البندقية، أرسلت إلى الكونت ضربة كانت بالتأكيد ستدير رأسه. قفز قفزة كبيرة للخلف، تجنب الضربة، وأصبح قريبا من باب مدخل القاعة الكبيرة، حيث، لحسن حظه، تم الإمساك به، وأيضا بالحارس، من قبل أبطالنا الذين كانوا قد تسلقوا النوافذ وهم يدفعون القناص وبقية الخدم.

آه! يا أصدقائى، أنتم تؤذوننى! قلت، وأنا أنزل فأسى، لا يجب أن نضربه الآن وهو فى وضع لا يستطيع معه الدفاع عن نفسه.

بعد أن قيدت أيدى الكونت وماسكريه والقناص والآخرين بحبال الستائر، أنزلناهم جميعا إلى الفناء.

فى الفناء الأسود، حيث كانت تضيء فقط بعض الفوانيس التى كان يحملها الفلاحون، كان الكونت مربوط الأيدى، لا يوجد فوقه سوى سرواله وقميصه القدامى. وبجواره، وقف سكان القصر مرعوبين؛ وجميع سكان القرى، رجالا ونساء، يحيطون بهم ويؤنبونهم على سوء أفعالهم وشتائم وحركات تهديد: حتى أن البعض بدأ فى الصياح بضرورة القضاء على *نانزاك*.

– فاسد وغد! فقدت صغيرتى شرفها بسبب نذالة ابنك: سوف تدفع الثمن عنه!

وانضمت أصوات أخرى إلى هذا الصوت، يلقون صائحين بتأنيبهم للكونت، وفى الغضب، يرسلون قبضاتهم تحت أنفه؛ بينما يمسكه واحد من رقبته والعصى والمناجل ترتفع على رأسه

كان الدم يسيل من وجنتى، وكنت أشعر بجرح كتفى ينزف تحت سترتى؛ ولكن رغم ذلك ابتعدت عن الحشد، رافعا ذراعى، وصحت:

– توقفوا!.... حتى الآن، أيها الرجال البواسل، لقد أحسنت نصحكم، أليس كذلك؟ حسنا، إذن استمعوا إلىَّ ثانية!.... لديكم جميعا

ما تشتكون منه من هذا الرجل وأتباعه؛ لا توجد نذالة لم يفعلها بكم...

– أجل! أجل!

والجميع حول الكونت، القبضة ممدودة، أو يلوحون بسلاح، يبصقون له فى وجهه مفاسده.

– ولكن أنت، *جاكو*، صرخت فىّ امرأة، أنت تأذيت أكثر من الجميع!

– هذا صحيح، *نادال*؛ هذا الرجل تسبب فى موت أبى فى السجن، وأمى من البؤس، يائسة؛ وبإلقاء حبيبتى *لينا* المسكينة بنفسها فى *الجور*، بعد أن اعتقدت أننى اختفيت إلى الأبد؛ بالنسبة لى فقد حبسنى أربعة أيام وأربعة ليالٍ فى أعماق زنزانة السجن، وإذا لم أكن قد قضيت نحبى بسبب الجوع، ببطء، أو مأكولا نصف حى من الفئران، فذلك بفضل شريف (الفارس) *جاليبرت*.

"آه! أتتنكر، أيها اللص! قلت وأنا أرى الكونت يهز رأسه.

"اذهبوا ومعكم سلالم إلى السجن، قلت لثلاثة أو أربعة من حولى، ارفعوا شاهد القبر وانزلوا فى هذه المقبرة، سوف تجدون فيها أجزاء من الحبال التى كنت مقيدا بها والتى مزقتها بصعوبة شديدة فى الجدران، وسوف ترون أيضا عظاما تعفنت وواقعة فى التراب، لأحد البؤساء تم إلقاؤه فيما مضى.

بينما ذهب هؤلاء إلى السجن، تجنبت ابنة الكونت الصغرى. كانت موجودة بجواره مرتدية نصف ملابسها، فى حالة متماسكة. كان شعرها الكثيف الأحمر يلمع مثل النقود الذهبية ويسقط بغزارة على أكتافها العارية؛ كان فمها المشدود يعبر عن الازدراء، وكانت فتحتا أنفها المعقوف قليلا منتفختين من الغضب، وعيناها الغامقة الزرقة ترسل لى نظرة كراهية، حادة مثل نصل السيف.

ولكن، فى ذاك الوقت، كنت فى غاية الجرأة، وكنت أنظر إليها بثبات دون أن أرمش. كانت فتاة جميلة فى الثامنة عشر من عمرها، طويلة، قوية وجريئة، كانت تقف هناك، بلا خجل وبلا ارتباك، نصف عارية وسط كل هذا الحشد. ليس لأنها كانت فاجرة، إذ إنها كانت الوحيدة من بين أربعة أخوات لا يقال عنها شيئا، ولكن هذا السلوك كان يأتى من احتقارها لكل هؤلاء الفلاحين الذين لم يكونوا فى نظرها رجالا.

أنا، كنت خجلا من أجلها، وقلت لها:

- اذهبى والبسى.

حدقت فىّ دون أن ترد، ذراعاها عاريان دائما، معقودتان على صدرها، ولم تتحرك.

-خذى سيدتك، قلت لإحدى الخادمات، وإلا سأجعل نساءنا يلبسونها، قبل أى شىء.

وأخيرا قررت، ولكن لو كانت عيناها مسدسا لكنت مت.

فى هذه الأثناء، كان الرجال قد عادوا وكانوا يحملون من الجب قطع من الحبل وبقايا عظام.

-والآن، هل ستتكر؟ شرير *كروزات*!

أصبح أكثر شحوبا، أغلق عينيه ولم يرد.

-يجب شنقه! ألف مرة! يجب شنقه! كان البعض يصيح.

-لو شنقناه، صحت، لن يتألم سوى للحظة قصيرة، سينتهى كل شىء فى خلال دقيقتين: لدينا ما هو أفضل. لقد رأيتم جميعا بالقرب من *الفيزار*، فى الطريق إلى تخصيص *فونبيرين*، أنقاض قصر *رينياك*، فى أبرشية *تورساك*. كان يوجد هنا، قبل الثورة، نبيلا شديد الخسة، شديد السوء فى مسألة النساء، بحيث أسموه فى البلاد: *تيس رينياك*. وإذن، هذه الأنقاض، جدى هو الذى فعلها مع أهالى *تورساك*، المتعبين من سوء أفعال هذا البائس. عندما أشعلوا له قصره، تيس *رينياك*، الضائع مسبقا من الديون، تسكع فى البلاد لبعض الوقت وانتهى بأن مات من السخط والبؤس: هكذا سنتخلص منه...

"بما أنكم جميعا متفقون على أننى أكثر من تأذى من هذا الرجل، دعونى أنفذ العدالة. العقاب الأكبر له، الأسوأ من الموت، هو أن يصبح معدما، أن يتسكع، هو الشديد التفاخر، الشديد الغرور،

وجود مهين؛ المال الذى يمده بالقوة، إذ إنه دونه لن يكون له أصدقاء، المعروف أن النبلاء الآخرين لا يحبونه ولا يقدرونه مطلقا مثلهم مثل الفلاحين.

هنا حاول الكونت أن يبتسم ساخرا.

-أنت تعلم ذلك جيدا، يا *كروزات*، أنهم لن يأخذوك كواحد منهم! بأنهم سيتذكرون جدك، حامل الماء!

واستأنفت:

- كما أشعل أهالى *تورزاك رينياك*، علينا أن نشعل *هارم*. الإزالة الكاملة لهذا المأوى للصوص سيكمل خراب بيت هذا النبيل المزعوم، الذى سيذهب للتسول من قصر إلى قصر وستكون الشفقة المزرية هى عقوبته الكبرى!

"صدقونى، يا أصدقائى! فأنا من سلالة تعرف ذلك. منذ زمن هنرى الرابع، كان أحد أجدادى- رئيس مجموعة من المتمردين - يحرق قصور النبلاء، طغاة الفلاح المسكين، ومنه جاءنا هذا اللقب *المتمرد*! أحرق جدى *رينياك*، كما قلت منذ قليل؛ وأنا، بدأت، منذ الثالثة عشر من عمرى، بحرق غابة *هارم*، واليوم، سوف أشعل النار فى القصر!

-هو ذاك! هو ذاك!

-هيا، كوموا حزم الحطب فى كل مكان، فى المطبخ، فى القاعات السفلية؛ طلعوا من القبو براميل ماء الحياة[٤٦]، زيت، وسوف نرى نيران السعادة الجميلة.

بينما كان الأهالى يركضون إلى العمل، خرجت الخادمة من القصر واتجهت نحوى.

-الآنسة لا تريد النزول.

-سأذهب إليها، أجبت، تعالى أرينى أين هى.

عند وصولنا فوق، رأيت الفتاة مرتدية ملابسها، وتجلس فى ركن بالغرفة.

- قلت لها: يجب أن تنزلى، سوف نحرق القصر.

نظرت إلىَّ بصلابة، دون أن ترد.

-إذا لم تأت برغبتك، ستأتى بالقوة.

وتقدمت نحوها.

فى هذه اللحظة، رفعت مسدسا صغيرا علىَّ وحاولت ضربى؛ ولكنى أمسكت رسغها فى حركة كبيرة قوية وجردتها من السلاح.

---

(٤٦) سائل كحولى مستخرج من تقطير عصائر الفاكهة كالتفاح أو من تقطير مواد غذائية كالحبوب.

– مع أنك أعطيته إلىَّ بالقوة قليلا، سأحتفظ به حاليا! قلت وأنا أضع الخنجر فى جيب سترتى.

وفى نفس الوقت، أمسكتها بذراعى من وسطها، وحملتها، رغم مقاومتها .

– اهدئى! قلت لها بغلظة وأنا أغرق عينى فى عينيها وأنا أشدها بقوة أكثر، بينما كانت تحاول أن تخربشنى.

فهمت، ولم تعد تتحرك؛ بعد برهة، وضعتها على قدميها، بجوار والدها.

ثم، بعد تجهيز كل شىء، أخذت فانوسا من رجل؛ ولكن فى اللحظة التى كدت أذهب فيها إلى القاعة الكبيرة، صرخ صوت:

– والكاهن ؟

يا للهول! لم يفكر فيه أحد.

– اذهبوا إذن لإحضاره، قلت، وبسرعة.

بعد هنيهة، وصل الدوم الأكبر *إينجالبيرت* إلى الفناء، يجره ثلاثة أو أربعة رجال هم الذين وجدوه مختبئا فى غرفة بالسقيفة. كان المسكين يصرخ مثل خنزير سيذبح، لا يقاطع إلا ليطلب الرحمة بصوت يرثى له.

- هيا، اصمت، أيها المولول! ألا ترى كل الآخرين على أقدامهم؟ ... ألم يبق أحد؟ إذن، إلى الأمام!

لدى الدخول إلى القصر، كسرت برميلين من ماء الحياة التى انتشرت على الأرضية، ثم أشعلت النار، وخرجت.

كنا نرى عبر النوافذ المفتوحة لكى تنعش النار، شعلة زرقاء ترتفع، تسير بجوار الجدران، تغطى الأثاث، وتتسلق الستائر وتشعل الحطب المكدس فى القاعة الكبيرة. وبعد ربع ساعة، اشتعلت كتلة حطب ضخمة ووصلت حتى السقف. وانتشر الحريق فى الغرف المجاورة. اكتسحت النيران كل شيء، وبعد ساعة لم يكن كل الداخل إلا فرنا ضخما، يتقيأ من الفتحات وابلا من الشعلات التى كانت مثل الألسنة الملتهبة، تلعق الجدران الخارجية. ثم باندفاع النيران على التسلقات تمكنت من الأدوار العليا، وسريعا ما اشتعلت هياكل خشب الكستناء القديمة، المحترقة بقوة، مثل أعواد الثقاب. وهكذا بدأت تمطر فى الفناء الأحجار التى تمت تحميتها بواسطة الأطر التى كانت تحترق: كان يجب التراجع. أخيرا، بانهيار الغطاء فى ضجة عنيفة، صعدت النار إلى السماء من خلال الأعمدة، ملقية للبعيد على المرتفعات انعكاسات تميل إلى الاحمرار، بينما فى *روفينياك وسانت- جيراك* كانت أجراس الإنذار ترن بشكل متلاحق.

- أجل! أجل! دقوا! دقوا!

• عندما رأى الناس المستيقظين من دقات الأجراس أن قصر *هارم* هو الذى كان يحترق، لم ينزعجوا قائلين: "ليست نكبة كبيرة!" وإن كان بعضهم قد جاء، فذلك كان بدافع الفضول.

بينما كانت الأخشاب القديمة تشتعل كما نريد، كانت الدعامات والروافد، قوية جدا، تقاوم طويلا؛ ولكن مع ذلك، فى الصباح، انهارت الهياكل، تجر معها باقى دعامات الطوابق السفلى وتدفع نحو السماء شرارات متوهجة. لذلك، لم يبق بين الجدران الجيرية سوى أنقاض من الخشب الأسود المحترق على كومة كبيرة من الرمضاء.

فى تلك اللحظة، سمعت رجلين يتنازعان خلفى، وعندما التفت رأيت أنهما كانا يتشاجران على بندقية مزدوجة، مأخوذة من القصر.

– لا يستحق الأمر أن تتجادلا فيما بينكما على معطف الكاهن الأكبر، يا أصدقائى. تعلمون ما اتفقنا عليه: لن يحمل أحد زرارا.

وأخذت البندقية، وألقيتها فى النار من النافذة، وعدت.

– الآن بتنفيذ العدالة، لنترك كل هؤلاء يذهبون! قلت، مشيرا إلى الكونت وأتباعه، شاحبين ومرتعدين فى هواء الصباح البارد، رغم الأتون المشتعل الذى كانت تتصاعد منه بعض سحب الدخان الأزرق.

عندما تم تحريرهم، ابتعدوا، متجهين نحو أقرب عزبة، أضفت:

- وأنتم أيضا، احتفظوا فى ذاكرتكم بأننى وحدى من أشعل النار فى القصر، القوا على عاتقى ما حدث، سأتحمل مسؤولية كل شيء.

وبما أننى كنت أتوقع بأن الشرطة لن تؤخر زيارتها لى، ذهبت رأسا إلى *تونون*، مع اثنين جرحى آخرين، لكى يخرجوا الرصاص من أجسادنا.

فى اليوم التالى، عند الصباح، دق الباب بعنف، استيقظ *جان* وعاد، قائلا:

- الشرطة هنا.

- قل لهم إننى سأذهب إليهم.

وبعد أن ارتديت ملابسى أعطيته مسدس الآنسة *جاليوت*:

- احتفظ لى بهذا *جان*، وإلى اللقاء!

وضعنى العساكر بينهم بعد أن قيدوا يدى، وذهبوا إلى *باريس*، ثم إلى *الهارم*، جاعلين الصبية الصغار المرعوبين يختبئون منهم. بعد أن جمعوا كل الجماهير فى حوش القصر، أمام الأنقاض التى مازالت تدخن، بدأ قاضى الصلح والعمدة استجوابات لا تنتهى. بالنسبة لى، اعترفت بصوت عالى بأننى المذنب الوحيد، بأننى نفذت كل شيء؛ ولكنهم قالوا إن ذلك مستحيل، لما حدث من استيلاء على القصر.

أخيرا، وبناء على إفادة العمدة وبلاغات الكونت، وبناء على أوامر القاضى قبض العساكر لحسن الحظ على خمسة أو ستة فلاحين، من المشهورين بعنادهم، وموضوعاتهم السيئة، وربطونا مثنى مثنى، ورحلونا إلى *مونتينياك*. فى الصباح، أخذونا مبكرا من مكان قذر حيث نمنا على القش، لكى يقودونا إلى *صارلات*.

حبسونا شهرا ونصف فى *صارلات*. فى البدايات، كان القاضى يجعلنا نحضر ليستجوبنا تقريبا كل صباح، وفى الغالب أنا. كان الحقير يعرف مهنته، وكان أحيانا يطرح علىّ أسئلة ذات حدين مثل سكين بائع الكرشة، التى كنت أجد صعوبة فى التعامل معها. عندما كان يحدث لى هذا، كنت أتظاهر بالبلاهة، بأننى لا أفهم، حتى أعطى نفسى الوقت للتفكير. الآخرون، هم، لم يكونوا يعرفون شيئا، لم يروا شيئا، لم يسمعوا شيئا، إلا حين دقت أجراس الإنذار بالحريق، التى جعلتهم يهرولون إلى *هارم*. أخيرا، رأى القاضى أنه لن ينتزع منا أشياء مهمة، فكف عن مضايقتنا ونقى عمله بمفرده.

رغم أننا لم نعانى كثيرا هنا فإننى كنت منزعجا بشدة، إذ، كما كان يقول الشريف (الفارس)، "لا يوجد سجن جميل، ولا حب قبيح"، وأيضا كنت متعجلا محاكمتى. لذلك كنت مسرورا ذات صباح عندما أيقظنا السجان فى ساعة مبكرة.

-سترحلون إلى *بيريجو*، قال.

عندما أصبحنا جاهزين، أعطى لكل واحد منا كسرة خبز؛ ثم جاء العساكر وقيدونا مثنى مثنى.

استغرق الطريق ثلاثة أيام، ولكن ينبغى القول إننا لم نكن نسير بسرعة، كثيرون كانوا يلبسون فى أقدامهم أحذية ثقيلة ثم القبض عليهم بها. كان توقفنا الأول فى *مونتينياك*، حيث حبسونا فى سجن نتن كنا نعرفه من قبل.

وفى اليوم الثانى، لم نسر إلا اثنين ليو كبيرتين (ثمانى كم تقريبا) من البلد، حتى *تونون*؛ ولكن اليوم الثالث كان قاسيا على الأخص بالنسبة للذين كانوا يجرون أحذيتهم، إذ إن الطريق كان طويلا، بحيث إننا ما أن وصلنا إلى *بيريجو*، حتى حبسونا فورا فى السجن، الذى كان حينذاك فى دير الأجستيين القديم (رهبان دير القديس أوجست)، على أروقة *تورنى*.

فى اليوم التالى، جاء رئيس القضاة واستجوبنى وسألنى إذا كان لدى محامى.

– أجبته: أجل سيدى، السيد *فيدال– فونجراف*.

– آه! السيد *فيدال– فونجراف*؟

– أجل، سيدى، هو يدافع عنا جميعا.

هكذا فهمت من دهشته بأن قضيتنا لم تبد له جيدة، إذ إن السيد *فون- جراف*، "**الرجل- الشريف**"، كما كانوا يلقبونه، كان مشهورا بأنه لا يقبل إلا القضايا العادلة.

كتبت له من *صارلات* لأرجوه أن يدافع عنا، ورويت له بالتفصيل كل ما حدث. بعد أن وصلنا إلى *بيريجو*، كان يأتى كثيرا إلى السجن ويقابلنا جميعا، غالبا، أنا، حتى يطلع جيدا على القضية. أتذكر أننى ذات يوم، بعد أن عرضت عليه خطتى ورويت له كيف قبض علىّ للاستيلاء على القصر، قال لى بلا تكليف، كأنه يرانى صغيرا جدا:

-كان يجب أن تكون جنديا! لديك موهبة المهنة.

-فى الواقع، سيد *فون- جراف*، أننى سحبت رقما جيدا ولم أكن أرغب على الإطلاق فى التجنيد؛ أحب كثيرا حريتى.

بعد ذلك، فى الحديث عن دفاعنا، قال لى إن عددا كبيرا من الناس *فى* هارم وفى القرى المجاورة تم الاستشهاد بهم كشهود نفى، وبأنه كان يأمل أن يكون لشهادات كل هؤلاء من ضحايا الكونت تأثير على قرار المحلفين.

اليوم الذى بدأت فيه محاكمتنا كان يوم ٢٩ يوليو ١٨٣٠. ترددت شائعة كبيرة فى دار المحكمة، والمحامون وكل الفضوليين

كانوا يعطون أخبارا قادمة من باريس تعلن الثورة[٤٧]. الشهود الذين استدعاهم الادعاء كانوا الكونت، وبناته، وكل العاملين بالقصر: لا أحد غيرهم رأى شيئا. فى مسألة تورط بها العديد من الأشخاص، من النادر ألا يوجد أى خسيس يمكن شراؤه ببعض المال لكى يخون الآخرين؛ ولكن هنا لا شىء مماثل، لم يتعثر أحد. تحامل علىَّ كثيرا آل *نانزاك* وكذلك المبجل *إينجيلبرت* الذى روى أشياء كثيرة، حتى جعلنا نعتقد أنه وحده يعلم كل ما حدث. أفقدنى صبرى تماما لدرجة أننى قلت له:

-وكيف استطعت أن ترى كل ذلك، بينما كنت مختبئا خلف صندوق فى السقيفة؟

انفجر الجميع فى الضحك، مما قاطع كلامه تماما.

أضافت الآنسات البكر الثلاث قليلا إلى الحقيقة، بحيث إننى عرفت أن من خافوا أكثر، هم الذين كانوا أكثر تحاملا علىَّ.

إذ إن الصغرى، لم تشهد إلا بالحقيقة. وبينما الرئيس، لكى يزين عملى، جعلهم يعتقدون بأننى عندما ذهبت لإحضارها، حاولت الاعتداء عليها، قالت هى بوضوح إنه لم يحدث شىء من ذلك. بأننى كنت قائد هذه الجماعة من المجرمين الذين هاجموا القصر؛ بأننى

---

(٤٧) ثورة باريس الشعبية للأيام الثلاثة المجيدة ٢٧ و٢٨ و٢٩ يوليو عام ١٨٣٠ التى أسقطت الملك شارل العاشر.

وحدى الذى أشعلت النار؛ بأنها آسفة بشدة لأنها لم تستطع إلا جرحى بطلقة من مسدسها، ولكن ليس لديها شىء آخر ضدى.

– ومع ذلك، يا آنسة، رد الرئيس، المتهم *فيرال*، كانت لديه خربشات فى وجهه، وأنت نفسك كان لديك دم على وجهك.

– استطعت أن أعطيه بعض ضربات بأظافرى وأنا أقاومه فى أثناء حمله لى خارج القصر؛ أما الدم الذى كان على جبهتى، فكان من الجرح الذى بوجنته وكان يسيل علىّ.

– تعقلى، يا آنسة، ربما تعانين من بعض الارتباك، وهذا طبيعى، الإقرار بهذه المحاولة؛ ولكن اطمئنى، لن تتضرر سمعتك بأى درجة؛ قولى لنا بصدق كل الحقيقة.

– قلتها بالكامل، سيدى؛ أكره المتهم ولكن ليس لدى شكاوى شخصية ضده. يجب حتى أن أضيف أن بدونه كان سيقضى حتما على والدى هذا الجمع الغاضب.

– اذهبى واجلسى، قال الرئيس بجفاف.

ثم بدأ العرض الطويل لشهود النفى. وفى الوقت الذى كان ضحايا العنف القاسى والاعتداءات المقززة للكونت، يستعرضون قصة بؤسهم الساذجة، كنا نرى أنف المدعى العام تغرق فى أوراقه حيث كان يتظاهر بالبحث عن شىء، بينما كان الرئيس يضرب على

مكتبه بفتاحة الورق ضربات صغيرة متململة. أما المحلفين، كان واضحا أن هذا الاستماع يولد لديهم انطباعا جيدا.

وحقق حضور شريف (فارس) *جالبيار* نجاحا كبيرا، الفضول أولا، إذ نسى الناس فى المدينة هذه الحلل القديمة لنبلاء النظام القديم، كحلته، وبعد ذلك شهادته جعلتنى محبوبا لدرجة أن العامة، الذين كانوا يهتمون بنا، أسمعونا همسات تأييد.

ثم، بما أن الوقت تأخر، تأجلت الجلسة لليوم التالى، ليلقى المدعى عريضة الاتهام ومرافعة السيد *فونجراف* التى كانت تدافع عنا جميعا.

عرفنا فى اليوم التالى أن الشعب فى باريس اصطدم بالسويسريين، والحرس الملكى، وأن *شارل* العاشر فر. صدمت هذه الأخبار قليلا رجال العدالة الذين كانوا ينتظرون شيئا آخر؛ ومع ذلك لم يمنع هذا الادعاء من طلب رأسى بقسوة. بعد ذلك، بعد أن أكد طويلا أن كراهية الأثرياء كانت المحرك الوحيد لجريمتى، مر على المتهمين الآخرين. لهؤلاء، لم يرفض الظروف المخففة، كان يرضى بالسجن المؤبد.

أنا، كنت أسمع كل هذا بلا تركيز، دون أن أهتز كثيرا؛ كان تفكيرى بعيدا. رأيت من جديد أبى المسكين جالسا على نفس هذا المقعد حيث كنت، وأمى ميتة على فراش المرض فى كل عذابات

اليأس؛ كنت أسرح فى حبيبتى *لينا* ممددة داخل هوة *الجور*، وبترك نفسى مستغرقا فى كل هذه الأفكار الحزينة، قلت لنفسى إننى الآن، بعد أن انتقمت لمن كنت أحبهم، أتممت عملى، لم يكن يفزعنى الموت.

– سيد *فونجراف*، الكلمة معك، قال الرئيس.

وهكذا وقف محامينا على قدميه، وضع قبعته أمامه، وبدأ هكذا بصوت وقور وعميق مرافعته، تنشر بالكامل، فى اليوم التالى بجريدة *ايكو دى فيزون*(٤٨).

"أعتقد أننى ألمح عبر العصور بعض علامات العدالة اللاواعية للأشياء. هذه العدالة، ليست بالتأكيد، رفيعة وهادئة كالتى تطمح إليها البشرية، ولكنها نوع من الثأر يظهر أن الجور يولد الكراهية، إن الطغيان يسبب العصيان، والظلم انتهاك لقوانين العدالة.

القضية التى تنظرون فيها ليست إلا حلقة فى هذه السلسلة الطويلة من هياج الفلاحين، مصحوب بتعد قاسٍ، ووقاحة بلا حدود وبأعنف درجات الطغيان.

ليس كل المذنبين هنا على هذا المقعد خلفى، سادتى! ينقص أولئك الذين قادوا الأحداث فى الآليات الإجرامية التى رد عليها

---

(٤٨) فيزون هو اسم البريطانى الرومانى لبريجو.

المتهمون؛ ينقص هذا النبيل المدعى، هذا الحفيد المغرور لشرير كان يجمع هذه التراكمات من الذهب غير النقى فى جدول (مجرى مائى) شارع *كاكومبو*".

- سيد *فونجراف*، قاطعه الرئيس، هذه التقييمات بالعودة للوراء[٤٩] ليست مفيدة؛ ليس من حقك البحث عن أصول ثروة عائلة محترمة؛ لا تخرج عن أحداث القضية: يجب احترام الملكية.

- سيدى الرئيس، أوافق تماما على هذه القاعدة.... ولذلك أحترم الثروة المكتسبة من عمل شريف ودؤوب، وأحترم أيضا الملكية التى هى الثمرة الواضحة للعمل. ولكن الثروة المبنية على الأنقاض العامة، عندما تأتى الملكية من الاحتيال، لدىّ الحق كرجل وكمحامى أن أحط من قدره وأن أزدريه!

"كنت أقول سادتى المحلفين، إن أكثر المذنبين كان هذا الذى رفعوه لمرتبة النبلاء، والذى ظهر فى هذا العصر كمتوحش من زمن آخر.

وكذلك، استعاد شهادات شهود النفى، صاغ لوحة مروعة للبؤس، والطغيان، والأعمال الوحشية التى عانى منها الفلاحون جيران الكونت".

---

(٤٩) Flash-back

مدعى الملك الذى سلم تماما بتأثير هذه المرافعة، الواضح على وجوه المحلفين، فحكم بعدم جدوى الرد. أما بالنسبة للرئيس فقد حاول بقوة، فى تلخيصه، أن يمحو هذا الانطباع بأن يوضح، بتضخيم حجج المدعى العام وبتقليص حجج محامينا، ولكن لا شىء نتج عن ذلك: فبعد نصف ساعة من المشاورات، عاد المحلفون بقرار تبرئة جميع المتهمين.

لدى الخروج، كان ينتظرنا جمهور كبير بفضول لكى يرونا عن قرب، الكثير من أهالى المدينة المتسكعين. عند رؤية هؤلاء الفضوليين الذين كانوا يتدافعون قائلين: "ها هم! ها هم!" فكرت داخل نفسى: "كان سيصبح مفيدا أيضا لو أنهم أمروا بقطع رقابنا!" ولكننى لم أقل شيئا حتى لا أفسد فرحة الآخرين الذين كانوا خائفين من عدم رؤية أبنائهم مرة أخرى.

ذهبنا جميعا للنوم فى هذا الفندق الصغير فى شارع *ميزيريكورد* حيث كنا نسكن أنا وأمى، فى أثناء قضية والدى. لم تكن توجد أسرة كافية للجميع؛ ولكن فى ذلك الوقت، كان طبيعيا فى السفر، وعلى الأخص بالنسبة للفقراء، أن يناموا اثنين أو ثلاثة معا، وهذا ما فعلناه. فى صباح اليوم التالى، ذهبنا جميعا سويا لنشكر السيد *فونجراف* ونسأله عما ندين له به.

- آه! قال لعلمه بأننا كنا فعلا فقراء، لا شيء، يا أصدقائي. لقد تقاضيت ما يكفي عن جهدي بسعادتي في مساعدتكم على التخلص من وضع سيئ: اذهبوا بسلام إلى أهلكم.

بعد أن ودعنا السيد *فونجراف* ونزلنا سريعا ساحة *جراف*، عبرنا *البون – فيو (الجسر القديم)*، *باريس*، وها نحن على الطريق الكبير *لليون*، راحلين إلى *غابة باراد*، حيث وصلنا عند شروق الشمس، الجميع سعداء لرؤيتها ثانية.

٨

مضت الفترة الأولى من السعادة بوجودى حرًا، وسقطت بعد ذلك فى حزن أسود وأنا أفكر فى حبيبتى *لينا* المسكينة. لشدة ما كانت رأسى فى اللعبة، تركت نفسى أنشغل قليلا عن ذكراها بخطرى الخاص. ولكن الآن وقد أصبحت خارج المشكلة، عادت إلىَّ هذه الذكرى، مريرة ومؤلمة، مثل تذكر جرح قديم بحقد.

أحيانا، كنت أذهب يوم الأحد إلى *بار*، أقابل *برتيل*، لأجد التعزية بالحديث عن صديقتى المتوفية الطيبة. كانت الفتاة الشجاعة تمتثل، وتكلمنى عنها طويلا، وتحدثنى عن كل أسرارها الصغيرة التى تقولها الفتيات الصغيرات عن أحبائهم. رغم أن ذلك كان يحيى من جديد بطريقة ما ألمى لمعرفة، بما كانت تقوله لى *برتيل*، إلى أى حد كانت *لينا* تحبنى، كنت أستمتع مع ذلك بسماعها ولا أتوانى عن سؤالها عن ذلك.

ولكن الرجل رجل. عندما ينتزع نصف قلبه موت من كان يتصور أنه يحفظها طوال حياته بين جوانبه ويحبها حتى يومه الأخير، ويعتقد بإخلاص أنه لن يعيش فى هذا الفقد. يتخيل أن اختفاءها تعاسة لا تشفى، لا تمسه هو فقط، وإنما العالم بأسره. ومع ذلك، فى النهاية عندما يرى أن الأشياء تتبع مسارها الطبيعى؛ وبعد

الشتاء تصعد الشمس إلى السماء تغمر الأرض بالنور والحرارة؛ وبأن، من حوله، الحياة تسيل فى الأرض الخصبة؛ بأن العصافير تبنى أعشاشها؛ بأن الأحباء يتقابلون، يعانى من تأثير الأشياء التى تحيط به؛ يشعر أنه يحيا من جديد مع الطبيعة، وشيئا فشيئا يموت الألم، وتتمحى الذكرى، والصورة العزيزة، التى يعتقد أنها لا تموت، التى فى الأيام الأولى، كانت تظهر بوضوح مثل صورة جديدة تماما، تضعف فى الذاكرة، وتصبح أقل تميزا، مثل منحوتة على عملة قديمة استعملت حتى بليت.

هكذا كنت. مع الوقت، كان حزنى أقل مرارة، أقل ثقلا فى حمله. بدلا من ألم حاد ومليء بالثورات، أحسست أننى أنزلق فى حزن استسلامى. ليس أننى نسيت تلك التى كانت حبى الأول والأرق، ولكن إذا كانت ذكراها مازالت عزيزة علىَّ، فهى لم تكن دائما بنفس الألم.

منذ حريق قصر *هارم*، زاد كثيرا تقديرالفلاحين لى فى جميع المناطق المجاورة. فى أسواق *تونون*، فى معارض *روفينياك*، فى كل الأنحاء، كنت أجد كثيرا من الناس الذين يدعوننى لشرب نخب لو كنت أريد.

ولكن ما كان يجعلنى أفضل قادم الناس، لأننى دافعت عنهم، لأننى خلصتهم من الكونت ولأننى أزلت مأوى هؤلاء اللصوص.

أصبحوا الآن آمنين، لا يخشون من رؤية قمحهم يتحطم تحت أقدام الجياد، أو أن تأكل الكلاب أعنابهم الناضجة. سيذهبون عبر الطرقات، واثقين من الآن فصاعدا أنهم لن يتلقوا ضربة من سوط لأنهم لم يتوقفوا سريعا، وسوف يذهبون إلى المعارض وإلى الأراضى، واثقين أن فى غيابهم نسائهم وبناتهم لن يتعرضوا للاعتداء من شباب وقح.

إذ، منذ حريق القصر، رحل الكونت، ورحل أيضا كل أهله. هو، لم نكن نعرف بالتحديد أين ذهب. لحقت كبرى بناته بالقسيس الراهب *إينجلبرت* كراعية له، والذى لقب بخورى ناحية *كارلوكس*؛ الثانية وضعت كآنسة مرافقة فى عائلة كبيرة حيث لم تتأخر فى إشاعة الفوضى؛ الثالثة، الأكثر دردحة من الجميع، انضمت فى باريس لأختها البكر التى ساءت أحوالها منذ وقت طويل. أما الصغرى، تلك التى حملتها خارج القصر فى أثناء الحريق، استقرت فى عزبة صغيرة ليست بعيدة كثيرا عن *هارم*، كانت وقفا لأمها المتوفاة، والتى لهذا السبب، لم يستطع الأوصياء بيعها مثل باقى الأرض. كانت تعيش هناك، عند المستأجرة، التى كانت أمها بالرضاعة، تنام فى غرفة صغيرة على سرير سيئ؛ تأكل مثل الآخرين حساء وخبز أسود، كستناء وذرة؛ فى أثناء النهار كانت تذرع الغابة، بندقيتها تحت ذراعها، بصحبة كلبتها. بمظهرها الذى يشبه المهرة الصغيرة الهاربة، من كل عائلتها كانت الوحيدة التى

تستحق بعض التقدير. كانت أيضا مغرورة، مثل الآخرين؛ ولكن بينما كان أخواتها يضعن غرورهن بشكل سيئ، بالاستمرار فى سلوك حياة خليعة، حتى على حساب حريتهن أو شرفهن، فضلت حياة قاسية وبدائية على حياة الطغيان والفوضى. كانت رأس الأخريات مشروخة تماما بحيث لم يفهمن ذلك؛ وأيضا حين أعلنت لهن *جاليوت* نيتها، لم يكفوا عن السخرية منها"

- وإذن، ها أنت أصبحت فلاحة حقيقية؟

- لا ينقصك إلا مغزل!

- وسوف تتزوجين من *جاكو*!

"سوف تتزوجين من *جاكو*!..." هذه السخرية الهازئة، التى نقلتها إلىّ أخت *جاليوت* فى الرضاعة وهى تضحك بقوة، جعلتنى أسترجع أفكارى عنها، أتذكر الانفعال الذى شعرت به وأنا أحملها خارج القصر، وكنت أظل حالما تماما. بالتأكيد، أنا أعلم جيدا أن أى صبى فى عمرى، قوى وبصحة جيدة مثلى، يضطرب كما حدث لى وأنا أشعر بهذا الجسد الأنثوى الجميل يتحرك ويتلوى بين ذراعى. لا يدهشنى ذلك إذن. ولكن كيف يمكن أن تحركنى حتى الآن الذكرى الوحيدة لهذه اللحظة، أنا الذى لم يحلم قط بأى امرأة أخرى سوى *لينا*؟ كنت أرغم نفسى كل يوم على طرد هذا المشهد من ذاكرتى، مستمتعا بذكرى حبيباتى المتوفيات؛ ولكنى أحسنت صنعا، من وقت

إلى آخر كانت تعود إلى ذهني، متماسكة مثل الشجرة الشائكة التي تعرقلنا.

"لتأخذ الشياطين *فرانسات* التي جعلتني أقص مثل هذه الحماقة!" فكرت عدة مرات.

بينما كنت في هذه الحالة الذهنية غير راض عن نفسي، بسبب ما كنت أراه كخيانة لذكرى أهلي وكإهانة للمسكينة *لينا*، كان *جان* العجوز قد مات منذ أربعة أيام، ووجدت نفسي وحيدا. جاء ابن أخيه، الذي كان حطّابا مثله، مع زوجته وأطفاله الخمس للإقامة بالمنزل، سعداء للغاية بهذه الفرصة غير المتوقعة. لم يكن رجلا سيئا، ولكنه كان فقيرا لدرجة أن هذا الإرث الصغير كان يبدو له كأنه جزء من المحيط: بعد أن أفاق هو أسرته من ألم وفاة عمهم.

بالنسبة لي، حزنت كثيرا على *جان* العجوز الذي كان طيبا معي وساعدت في نقله إلى المدافن؛ وبعد ذلك تهيأت للانتقال.

في أثناء تجميعي لأمتعتي عثرت على مسدس *جاليوت* الصغير، وذكرني ذلك بالأشياء التي كنت قد نسيتها قليلا في أثناء مرض جان. كنت على وشك التخلص منه ولكني وضعته داخل حقيبة الظهر الخاصة بي.

انتهيت من تجهيز أمتعتى، صفرت لكلبى وذهبت، تاركا المفتاح لإحدى الجارات كى تعطيه لابن شقيق *جان* الذى قام بنقل بعض أثاثه القليل.

بالبحث جيدا، توصلت للتفكير فى بيت بائس يقع بين *لاس سورياس* وجروس *مورتييه*، والذى كان يستخدم فيما مضى كمأوى عابر لحراس غابات النبلاء، ولكنه أصبح مهجورا منذ عدة سنوات. هذا الكوخ، والغابة المحيطة به كانا ملكا لمالك من *بونفيل* الذى ذهبت لمقابلته على الفور. بما أنه كان رجلا طيبا، فقد اتفقنا فورا. تم الاتفاق على أن أسكن هناك دون دفع إيجار، بشرط أنه فى كل عام، فى عيد القديس *فوسمانى*، الذى يقع فى ٢١ أكتوبر، كنت سأحمل إليه أرنبا بريا وحجلين[٥٠] كعائد سنوى ثابت يتم دفعهما فى هذا التاريخ؛ ما أن تم الاتفاق حتى توجهت مباشرة إلى البيت المذكور.

ما كان يعجبنى فى هذا البيت الموجود فى *آج*، هو أنه كان وحيدا وسط الغابة، بعيدا بشكل كاف عن القرى، وبذلك لم يكن موجودا خطر النزاع مع الجيران. كان هذا المكان القفر مناسبا تماما لأفكارى الحزينة، وكانت الحياة الموحشة التى نعيشها بقسوة تتوافق تماما مع ميولى.

---

(٥٠) نوع من العصافير جسده قصير وغليظ، موجود فى آسيا وأوروبا، يعيش فى عش فى حفرة فى الأرض، الحجل الرمادى يعيش فى شمال فرنسا ووسطها، والأحمر يوجد فى جنوب اللوار، مطلوبين بشدة كصيد.

ومع ذلك، كان يجب عليَّ أن أخرج عندما كنت أذهب للعمل في المناطق المحيطة، ولكنني كنت أعود إليه دائما عن طيب خاطر. في المساء، بعد أن ينتهي النهار، بعد العشاء – أعود إلى المنزل. أسير ببطء في الغابة، يتبعني كلبي. كنت أستمتع بوجودي وحيدا، متحررا من تبعية الأجير ومن العلاقات الثقيلة، وكنت أتغذى بذكرياتي.

كنت أعتقد أنني برحيلي عن *موريزي*، *لا أعلم لماذا*، أنني تركت خلفي ذكرى هذه الفتاة *جاليوت* التي كانت تشغلني، ولكن لم يحدث شيء من ذلك. عندما أغلق عيني، كنت أتخيل أنني مازلت أراها في فناء القصر؛ شعرها معقود، وكتفاها عاريان، وفتحتا أنفها تهتزان، تلقي إليَّ بنظرة حادة. وكنت أتصور أنني مازلت أحملها بين ذراعي، تكشف دون أن تدرك، في أثناء النزاع، محاسن جسدها، غاضبة من تلقي قطرات من دمي على جبهتها.

ومع ذلك، كنت أشعر لا إراديا وأنا أدفع هذا الهوس المنحط، أنني مازلت سيد إرادتي، وكان ذلك يطمئنني؛ ولكنني سريعا ما منيت بهزة عنيفة.

في أحد أيام الأحد بينما كنت أصطاد في الغابة، بين *فوكوديه* و*بحيرة ناجر*، في حين كان كلبي يطارد أرنبا بريا، عند ملتقى طريقين في الغابة، قابلت *جاليوت*. توقفت فجأة عند رؤيتها، كأنني

أختنق بإحساس مشتعل، وعندما مرت، بوجنتيها الورديتين، وعينيها اللامعتين، وقشة مردقوش بين شفتيها الحمراوين، كنت أشعر بصدغيّ يضربان بضجيج.

مرت محمومة، وألقت نظرة استعلاء عليّ وأنا ظللت هناك مرتبكا تماما، دون أن أعثر على كلمة، أراها تبتعد بخطوتها الخفيفة والمنتظمة.

لم أكن أسعى إلى رؤية تلك التى كأنها سحرتنى، ولكننى مع هذا كنت أقابلها أحيانا. كان سيمكننى القول ببعض الزهو، إن هذه اللقاءات لم تكن تضايقها. كنا نتبادل بعض الكلمات فى أثناء مرورنا، وفى بعض الأحيان كانت تتوقف لكى تطيل الحديث أكثر.

كنت أريها أرنبا بريا راقدا أو مستعمرة حجلان، وكان ذلك يسعدها. وكانت قد تراجعت عن أساليبها المتعالية فيما مضى، وترى أننى بعد كل شيء لم أكن غبيا ولا جاهلا، كانت بدأت تشك فى أن الفلاح يمكن أن يكون رجلا. لكى أكون صادقا، أعتقد أن شخصيتى كانت تعجبها. عندما توقفنا هكذا عدة دقائق، كنت أعلم أن هذه الفتاة، الخجولة من الرجال حتى ذاك الوقت، كانت قد بدأت تفكر فى الحب. كان دم أهلها يتكلم فى عينيها، عندما كانت تحدق بى بقوة وصلابة، وتقيسنى من القدمين حتى الرأس، دون أى انزعاج، كأنها معجبة بحصان جميل. كنت أفهم ذلك جيدا، وكان يجرحنى قليلا؛ ولكن، بما

أنها، من جانبي، كانت الفتاة الجميلة والعاقلة التي كانت تمسك بي، لم أكن أعير اهتماما كبيرا لطريقتها.

مضى الشتاء هكذا، في هذا التمزق بين الشغف الذي يربطني وإرادتي التي تتراجع عن ذلك عندما أكون بعيدا عن *جاليوت*.

في نهاية الشتاء، بأحد أيام شهر مارس، في طقس مشمس، كانت تخطفني رغبة عارمة في رؤيتها. كان قد مر شهران دون أن أقابلها، إذ كان الشتاء قاسيا، وبقي الجليد مدة طويلة، وبدا لي أنه استمر عشر سنوات. كنت متأثرا بمشاعر غريزية كانت تحملني ناحيتها، رغم أن الماء كان يسيل على المنحنى، والشعلة تصعد في الهواء، والنبتة تستدير نحو الشمس. أخذت بندقيتي، عازما على الذهاب باتجاه العزبة التي كانت تقيم فيها، على أمل أنني بالتجول في المنطقة سألمحها دون أن تراني. ولكن عندما اقتربت من *جرانفال*، فجأة عادت إليَّ ذكرى المرحوم القسيس *بونال*، ومعها مثل نفس الثورة، ذكريات شبابي وذكرى أهلي الذين ماتوا من البؤس واليأس.

توقفت بسرعة، مرعوبا من انهيار إرادتي:" بائس! قلت لنفسي، جبان! هل ستنسى الكراهية التي أقسمت عليها لسلالة *نانزاك* الملعونة!..."

وفورا بسبب الغضب، غيرت الطريق، كنت قد عبرت إلى نهاية الممر بين أشجار الكستناء حيث دفنا القسيس المسكين. كانت

الأرض المرتفعة قد تكدست، تغطى التابوت المصنوع من الخشب الأبيض، بحيث لا نلحظ المقبرة نهائيا. كان العشب ينمو متساويا وكثيفا فى الممر المهجور، ويغطيه تماما. وجاءتنى الأفكار الحزينة فى رأسى، وذهبت ببطء إلى جور، وظللت هناك طويلا، عيناى معلقتان على هذه البركة التى كانت تصعد من الأعماق التى تحت الأرض؛ حيث كانت ترقد *لينا* المسكينة. ثم انتابتنى رغبة محمومة فى الحديث عنها، وذهبت إلى *بار* بحثا عن *برتيل*.

كانت نهاية المساء حين وصلت، ووقفت أنتظرها أمام شجرة دردار صغيرة؛ ولكننى قمت بمراقبة جيدة ولم أرها . كان الجميع فى الخارج، تنزهت قليلا، آملا في العثور على أحد من معارفى لكى أسأله، إذ كنت أظنها دوما فى *بوبيوتييه*. كانوا ينشدون بصوت مرتفع فى خان المنطقة الردىء، ولمحت عند مرورى الشهير *جيلهوم* السيدة *ماتييف*، ثملا مثل حمار *روبسبيير*، هكذا يقولون، لا أعرف لماذا. فى آخر المنازل، التى لم تكن كثيرة، فى االلحظة التى كنت أمر أمام كوخ صغير، تخرج منه *برتيل*، ترانى، تأتى إلىَّ.

- قلت لها: كيف حالك؟

-للأسف! يا صديقى *جاكو* المسكين، حدثت لى مآسى فى الفترة التى لم أرك فيها!

-ما هى، يا صديقتى؟

- سقطت أمى مشلولة ولا تتحرك بتاتا من السرير، ثم مات حبيبى *أرنو* هناك فى أفريقيا، قبل ستة أشهر من حصوله على إجازته.

- مسكينة *برتيل*، قلبى معك!

وهكذا، تحدثنا عن مآسينا، نحن الاثنان؛ أنا أكلمها عن حبيبها الطيب، وهى تكلمنى عن *لينا*.

وفى هذا الموضوع، قالت لى إن العجوز السافلة *ماتيف* كانت تعيسة تماما فى قصة *جيلهوم* الذى أخذ غرفة صغيرة فى البيت، يأكل نصف المكسب، وفوق هذا يضربها بعنف.

- تستاهل! قلت، لن أستريح إلا عندما أراها تحمل حقيبتها على ظهرها، ميتة على جانب أحد الطرق!... ولكن والدتك، أكملت، لا يوجد أى أمل فى شفائها؟

- للأسف! كلا: ولكنك تستطيع أن تراها، قالت، وهى تفتح الباب من جديد.

ودخلت بعدها.

يا للبؤس! فى بناء من الخشب حيث كانت توجد غرابيل لتجفيف الكستناء حيث أقيمت مدخنة ضخمة مثل مداخن الأكواخ فى الغابات، كانت المرأتان البائستان تقيمان. فى الواقع لم يكن يوجد

أثاث سوى منضدة بجوار جدار، مع مقعد، ومن الجانب الآخر، السرير الحقير حيث كانت ترقد المشلولة. بالكاد كنا نستطيع المرور بين المائدة والسرير، لصغره الشديد.

-ها هو *جاكو* الذى جاء ليراك يا أمى! قالت *برتيل*؛ هل تذكريه، الذى كان عند القسيس *بونال*، فى *جرانفال*.

-المريضة، التى لم يكن حيا فيها إلا عيناها، أنزلت أهدابها لتقول: "أجل، أعرف".

قلت لها مواسـيا، إنه لا يجب أن تيأس، إن الحرارة الآتية بلا شك ستشفيها، أخذت تحرك عينيها يمينا ويسارا للدلالة على عدم اعتقادها بذلك بتاتا.

بعد بعض كلمات التشجيع خرجت مع *برتيل*.

كنا نسير بهدوء على طول الطريق النازل، بين صفوف الأشجار الكثيفة التى كانت تزين الانحدارات. كانت لدى فكرة، ولكنى لم أكن أجرؤ على التصريح بها للطفلة المسكينة، وكنت أنظر آليا إلى الشجيرات السوداء؛ حيث كانت باقية بعض ثمار البرقوق الزرقاء الجافة من الشتاء، وزهور الياسمين البرى التى كانت ممتدة على العلائق وعلى نباتات الغار، تاركة فروعها متدلية على الطريق. من حين لآخر، كنت أكسر غصنا صغيرا دون أن أتوقف، وأمضغه، صامتا دائما؛ ولكن أخيرا وجدتنى خجلا من جبنى وتشجعت، قلت:

- *برتيل* المسكينة، سامحيني،.. ماذا تفعلين لكى تعيشى، أنت لا تستطيعين الخروج بالنهار؟

- أغزل بقدر ما أستطيع.

- وتكسبى من أربعة إلى خمسة سو فى هذه المهنة؛ لا تكفى لشراء الخبز، وخاصة أنه غال الثمن، هذا العام!

كانت تسير منحنية الرأس ولا ترد.

عبر شىء ما بقلبى مثل إبرة.

- وربما، أكملت، ليس لديك فى هذه اللحظة؟

مازالت لا ترد.

لذلك أمسكت يدها:

- انظرى لى *برتيل*.

رفعت نحوى عينيها المليئة بالدموع.

- معي ثلاثون سو فى جيبى؛ أرجوك خذيها...ها هى....

- ترددت لحظة، ولكن، عندما رأت عينى الرطبة، أخذت النقود.

- شكرا، يا صديقى جاكو.

- إذا لم يتضامن الفقراء معا، من سيساعدهم؟ ليس لى أحد فى الدنيا، يخيل إلى أنك شقيقتى...

وضعت النقود فى جيبها، قلت لها أمام بابها، لا تحملى همًا ولا تقتلى نفسك بالسهر على مغزلك لكى تحصلى على خبزك: أنا موجود؛ سأعود يوم الأحد.

- أوه يا جاكو! لا أريد أن ألقى على كاهلك هذه المسئولية عن امرأتين.

- أنا قوى كفاية كى أحملها، أجبتها، لا تخجلى أبدا من ذلك: افترضى أننى أخوك، أضفت وأنا أمسك يدها.

نظرت إلى بألم شديد حيث إن شرارة مشتعلة من عينيها أعطتنى قشعريرة صغيرة من العاطفة.

- إلى اللقاء، قلت لها، وإلى يوم الأحد!

ذهبت مختلفا عما كنت عليه حين أتيت، مسرورا من نفسى، قلبى صلب، مستعدا لكل شيء. شعور بالرضى لتقديم خدمة لهاتين المرأتين البائستين، القرار الذى اتخذته بمساعدتهما فى شدتهما، كل ذلك كان يبهجنى. بدا لى منذ ذلك الحين أننى لم أعد إنسانا بلا فائدة لأحد؛ أصبح لى هدف، مسئولية أؤديها كلفت بها نفسى، وكان لهذه المسئولية شيئا مقدسا كان يرفع من تقديرى لنفسى؛ كل ذلك كان يفيدنى.

على مدى أسبوع، عملت بجهد، دون أن أخسر يوما، إذ كان يحدث لى ذلك أحيانا عندما كنت لا أفكر إلا فى نفسى، ثم، جاء يوم الأحد، فذهبت إلى *بار*. فى التفكير بما كنت سأفعله، كنت أشعر برضى داخلى لم أكن أعرفه من قبل، وكنت أسير مسرعا، متحمسا لجلب بعض المساندة لبؤس هاتين المخلوقتين التعيستين.

وجدتهما مازالتا فى نفس الحالة: الأم طريحة الفراش؛ والابنة، مغزلها بيدها، مازالت تغزل حتى دميت أصابعها. بعد أن مكثت قليلا معهما خرجت، جاءت *برتيل* معى، وفى أثناء سيرنا أعطيتها نقود أسبوعى؛ حينذاك قالت لى المسكينة:

– أوه *جاكو*! يجب أن يكون أنت لكى آخذها! من أى واحد آخر كنت سأموت خجلا.

– ولكن منى يمكنك أخذ كل شىء كأنه من شقيقك، قلت لك: اقبلى إذن هذا القليل، عن طيب خاطر، كما أقدمه لك!

وهكذا، بعد أن أخذت النقود، تعلقت بذراعى وسرنا فى الطريق دون أن نتكلم.

ثم، عدنا أمام الباب، تبادلنا النظرات لبرهة، كلانا مسرور من الآخر، وقلت لها:

–إلى يوم الأحد، *برتيلتى*.

-إلى الأحد إذن، يا *جاكوى*.

استمر ذلك قرابة ثلاثة أشهر هكذا. الفرحة بأن أكون، أنا الضعيف، مثل العناية الإلهية *لبرتيل* وأمها، والشعور بالمسئولية التى حملتها لنفسى، جعلت منى رجلا وأكثر. كل الأفكار المجنونة، كل الرغبات الملتهبة، كل الثورات الشرسة للجسد التى كانت تهزنى مؤخرا سكنت بالرضى بالواجب المنجز. بالكاد إذا جاء ظرف خارجى من بعيد لبعيد يذكرنى *بجاليوت*، وعندما كان يحدث ذلك، كنت أفكر فيها بلا أدنى اضطراب. كنت أشعر بالسعادة لتخلصى من هذه الحمى المحببة التى كانت تسببها لى، والتى كانت تكتسح إرادتى.

ذات أحد، عند وصولى، وجدت الفتاة المسكينة تبكى: كانت والدتها تلفظ أنفاسها الأخيرة. كانت تقف امرأة عجوز، قادمة بشفقة، بجوار السرير حيث كانت ترقد الميتة وكانت تتلو صلواتها. لم أر قط شيئا أكثر حزنا. لم يكن الوجه إلا عظما يغطيه جلد أصفر، شاحب، مجعد؛ كانت العينان زجاجيتين ومنطفئتين تنظران أمامهم دون أن ترى شيئا؛ الأنف أكثر نحافة، صلب مثل القرن، يظهر ثقبان أسودان، وتحت الجلد الذى كان يغطى هذا الرأس الجاف، كانت تظهر صورة الموت.

بقيت هناك حتى المساء، ثم ذهبت وأنا أقول *لبرتيل* بأننى سأعود فى اليوم التالى.

عندما دخلت فى الصباح، حوالى الساعة الثامنة، كانت الأم العجوز قد ماتت، و*برتيل* جالسة بجوار السرير المضاء بشمعة، كانت تعتنى بها.

نهضت وجاءت إليَّ، حمراء العينين.

- المرأة المسكينة! قلت، انتهت معاناتها!

ثم أخذت العصا التى كانت مغموسة فى الصحن حيث كانت المياه المباركة وألقيت بعض القطرات على الجسد.

فى هذه اللحظة دخلت الجارة التى كانت تساعد *برتيل*.

- يا طفلتى، يريد الخورى ثمانية فرنك، على أن ندفعها مقدما.

- للأسف! قالت الفتاة المسكينة، لم يكن معى إلا ثلاثة فرانكات وقد أعطيتها إلى *بونتو* من أجل التابوت!

- إنه بروتستانتى جميل، قسيسكم! ولكن هذا لا يدهشنى، أضفت، وأنا أذكر دفن والدتى المسكينة، وقسوته.

ولأن *برتيل* كانت حزينة لأن والدتها ستدفن دون صلاة، قلت لها:

- لا تزعجى نفسك؛ سوف أحاول العثور على المال.

ورحلت ثانية، سريعا، ذهبت لأخذ جلد عناق الأرض وجلود ثعالب كانت لديّ في الكوخ، ومن هناك ذهبت إلى *تونون* حيث بعتهم لتاجر كان يشتريهم مني عادة. في حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر كنت في *بار*، بعد أن جمعت الثمانية فرنك بواسطة ثمن الجلد ومبلغ دفعه لي التاجر مقدما.

أعطت جارتها النقود للخوري الذي قال لها حينئذ إن الدفن سيكون في حوالي الساعة الخامسة.

وهكذا في الساعة الخامسة، حملنا التابوت- مع ثلاثة رجال آخرين- إلى الكنيسة دون أي معاناة، إذ إن المرأة المسكينة لم تكن ثقيلة قط، وكذلك كانت الكنيسة قريبة جدا.

كان الخوري منتظرا مرتديا عباءته، كوفيته حول عنقه، قبعته المربعة على رأسه. ولم يلبث أن أنهى سريعا الصلوات، وبعد ربع ساعة، كنا في الجبانة؛ هو في المقدمة، مع الوكيل[٥١] الذي كان يحمل الصليب وعلبة المياه المباركة، وخلف الجسد، *برتيل* مع بعض النساء.

بعد أن تم كل شيء، ذهبت إلى المكان الذي كانت والدتي مدفونة فيه. رافقت النساء *برتيل*، وأنا، بعد ذلك، ذهبت لأودعها ووعدتها بالعودة يوم الأحد القادم. وفي الواقع، عدت ذلك الأحد

---

(٥١) وكيل مالي: موظف يشرف على شئون أملاك الكنيسة وماليتها. (المترجمة)

وجميع أيام الأحد الأخرى التى تلته. كنت أتلهف بشدة على انتهاء الأسبوع لكى أرجع إلى *بار*، ولم أكن أتخيل أننى أستطيع الذهاب إلى أى مكان آخر.

أقبل الشتاء، ثم الطقس الجميل. كان العشب ينمو بكثافة على قبر المرأة العجوز، يخفى الصليب المصنوع من أوراق الشجر، الذى وضعته ابنتها عليه يوم الدفن. أنا، كنت أشعر دائما أننى مشدود إلى *برتيل*؛ كنت سعيدا برؤيتها، وكنت أتألم لفراقها. كانت تشغلنى الآن أفكار عن المستقبل، وكنت أقول لنفسى إننى أريدها زوجة لى، لكى نعيش أيامنا سويا أحدنا بجوار الآخر.

ذات مساء بينما كنا نتنزه فى الطريق المؤدى إلى *فورنوجيه*، قلت لها.

- أوه *جاكو!* ردت علىّ، لماذا نجمع بؤسنا؟

- لكى نتحمله معًا، ونحن متحابان.

- لو كنت تريد ذلك، فأنا أيضا أريده.

وفى نفس الوقت استندت علىّ، رفعت رأسها ونظرت إلىّ.

عرفت حينئذ من عينيها أنها كانت تفكر مثلى، فأحطتها بذراعى، وسرنا طويلا فى صمت. على ذكرى أحبائنا الذين توفوا

نما إحساس جديد جاد وصادق كان يربط كل منا بالآخر من أجل الحياة، وبشعورنا هذا كنا حقا سعداء.

- لكوننا فقراء نحن الاثنان، قد نكون نرتكب حماقة، يا مسكينى *جاكو*! قالت بعد قليل.

- لا تخشى شيئا؛ أنا قوى وحمول بقدر كبير سوف أعمل من أجلنا نحن الاثنين.

- أجل، ولكن الأطفال الصغار!....

- قلت لها: اطمئنى، وأنا أضمها إلى.

- سيكون علينا الانتظار حتى انتهاء حدادى، أكملت بعد توقف.

- أجل يا *برتيلتى*، الآن بما أننى متأكد منك، سوف أنتظر المدة المطلوبة.

وملت عليها وأعطيتها قبلة المخطوبين.

ثم بعد أن رافقتها حتى منزلها، تركتها وعدت فى غاية السعادة إلى *آج*.

تم الاتفاق بيننا بعد ذلك، على الزواج بعد أعياد الميلاد، وجاء الموعد، وتطلب ذلك الحديث مع خورى (قسيس) *بار*. قال هو بلا تردد: "بما أن صديق هذه الفتاة الطيب وجد ثمانية فرنك لكى يتم

دفن والدتها، سوف يجد بالتأكيد عشرة لكى يتزوجها!" وكانت لديه الوقاحة على طلبها من *برتيل*. آه! لم يعد موجودا القسيس المستقيم *بونال*، الذى لم يكن يعنى له المال شيئا. أما هذا الآخر فلم يكن يحب أغنامه إلا من أجل صوفها؛ وكان يجز زغبها تماما.

عندما قالت لى الفتاة ذلك، فكرت قليلا وقلت لها:

-سترين! بما أنه هكذا سوف ننال منه.

وذهبت للقاء قسيس *فوسومانى*، فى الأبرشية التى كان بها منزلى (*فى آج*)، وشرحت له وضعى، قائلا، حيث إنها كانت الحقيقة، أننا فقراء نحن الاثنان، ورجوته أن يزوجنا بأقل سعر.

هو، الذى كان رجلا عجوزا مستقيما، أخذ يضحك وهو يستمع لهذا الرجاء ورد علىَّ:

-يا بنى، سوف أزوجكما بأفضل سعر ممكن؛ سيكون مجانا، من أجل محبة الرب.

-شكرا جزيلا، سيدى القسيس، أجبته ضاحكا أيضا، لن ننسى لك أبدا هذا الفضل.

كما خمّنا فعلا، لم يكن عرسنا جميلا جدا، لم نقف على الأبواب لكى نراها قادمة. أنا، لم يكن لدى أى أقارب، حسب علمى، فيما عدا ابن عم والدى الذى كان يسكن فى *سوندريو*، والذى لم أكن

أعرف حتى اسمه. و*برتيل* كانت مثلى، تقريبا، ليس لديها إلا أقارب من بعيد، كانوا فيما مضى مزارعين بالمشاركة بالقرب من *سانت-أورس*، ولكنها لم ترهم منذ عشر سنوات، وربما غيروا خمس أو ست مرات المزرعة التى كانوا يستأجرونها. لذلك كنا بمفردنا عند عمدة *فوسومانى* وفى الكنيسة، وأى أشخاص موجودين كانوا شهودا.

عند خروجنا من الكنيسة إذن، بعد أن شكرنا القسيس بقوة، اقترضت بغلة وعربة رجل من البندر كنت أعرفه منذ قدمت له خدمة صغيرة من قبل، وذهبت مع زوجتى لإحضار أثاثها القليل من *بار*.

بعد أن حملنا كل شيء، لم يستغرق مدة طويلة، عدنا إلى *أج* عبر الطريق السيئ بالغابة.

عندما دخلت الخص (بيت حقير) ورأت المنضدة التى كانت عبارة عن لوح من الخشب مثبت على أوتاد، والصندوق الكبير الذى كنت أنام فيه على نبات السرخس، نظرت إلىَّ زوجتى، عينيها تملؤها الشفقة:

- لم تكن أحوالك جيدة، يا مسكينى جاكو!

- بآه! أجبتها، كنت أنام مع ذلك.

بعد أن أفرغنا كل شيء ووضعنا ألواح السرير، أعدت البغلة والعربة إلى رجل *فوسموني*، بينما وضعت زوجتي الحلة على النار، مع دجاجة كانت قد أعدتها.

عندما عدت، بعد ثلاث ساعات، حاملا نصف زجاجة نبيذ اشتريتها من الخان، كانت زوجتي انتهت من تجهيز كل شيء كما ينبغي. لم يكن بالشيء الكثير فقط سرير ومائدة في هذا الخص، ولكن بدا لي أنه تغير تماما. السرير بملاءات من الكتان، حل محل صندوقي في الركن، وفي الوسط، مكان ألواح الخشب المثبتة، كانت المائدة. كانت النار تلمع بوضوح في الموقد الأسود، ومن القدر كان يخرج دخان رائحته طيبة. كانت موضوعة على قطعة من القماش الرمادي، كانت تغطي طرف المائدة، قطعة خبز وصحنان من الطين البني.

وزوجتي كانت تروح وتجيء، تغسل كوبين خضراوين، وتمسح ملعقتين، تتذوق الحساء، تضيف إليه الملح، تقطع الخبز في السلطانية، وأخيرا، بوجودها فقط، تمنح الحياة لهذا السكن البائس، الذي كان فيما مضى تعيسا ومنعزلا.

هكذا، ابتهج القلب، أخذتها بينما كانت تمر بجانبي وقبلتها بكل قوتي لدرجة أني جعلتها احمرت قليلا.

وعندما تم تجهيز كل شيء، وأقبل الليل، أشعلت المصباح وسكبت الحساء على الخبز. ثم، جلسنا، قدمته ومع الدجاجة التى كانت لديها فى بطنها حشو بيضة، كانت كل عشاء عرسنا، الذى استمر طويلا رغم ذلك، إذ إننا كنا نتكلم أكثر مما نأكل، نستعيد ذكرياتنا.

بقينا هكذا مدة طويلة. الكلب متخم، نام على شكل دائرة (متكورا) فى ركن الموقد، وفى الركن الآخر، كنا جالسين كل منا ملتصق بالآخر، زوجتى تسند رأسها على صدرى؛ وأنا أحيطها بذراعى.

كانت رياح الشتاء تعصف فى الخارج بقسوة وتتدافع أحيانا بعنف فى المدخنة، تصد الدخان وتؤرجح شعلة المصباح المعلق فى المدخنة. كنت أشعر بجوارى بقلب زوجتى يخفق فى ضربات خافتة ومتلاحقة، وكنت سعيدا.

كانت أفكارى تدور حول أفق هذا المستقبل الذى دخلناه نحن الاثنان، وبينما أحلم بذلك، كنت أنظر بشكل ميكانيكى إلى الفروع تهلك ببطء وتتحول إلى جمرات ينعشها الهواء الخارجى.

ثم كان الرماد الأبيض يغطى الجمر وشيئا فشيئا انطفأت النار. فجأة، طيرت هبة ريح قوية رماد الموقد وأطفأت المصباح:

– لا يجب أن نبقى هنا، قلت لزوجتى وأنا أقبّلها فى الظلام.

المؤلف فى سطور:

- ولد يوجين لوروا ١٨٣٦ فى ٢٩ نوفمبر فى قصر هوتفورت، فى دوردونى، من بيير لوروا ودينيس ديبوا. والده من أصل بريتانى، وكيل زراعة كونت داماس، ووالدته المسئولة عن غسيل الكونتيسة.

  لم يكن ممكنا تربيته فى القصر فأعهد به إلى مرضعة، شارلوت شاريار. عاش يوجين حتى عامه الثانى عشر فى الريف فقط. فى منزل ريفى بسيط. برع فضلا عن ذلك فيما بعد فى وصف المساكن الريفية الفقيرة.

- فى عام ١٨٤٨ التحق الصبى يوجين بمدرسة الفرير اللاهوتية المسيحية فى بيريجو لمدة عامين.

- فى عام ١٨٥٠ بعد أن تخلى عن الكهنوت، دخل كموظف كتابى فى بيت التجارة فى باريس، فوبور سانت هونوريه. ولكن العمل الوظيفى لم يستهوه على الإطلاق. علم نفسه حقا بلا معلم، لم يتوقف عن الدراسة معتمدا على نفسه.

- فى عام ١٨٥٤ انخرط يوجين لوروا فى فرقة الفرسان واشترك فى حملة الجزائر. وبقى أربع سنوات فى أفريقيا.

- ١٨٥٩: اشترك فى حملة إيطاليا.بومو بيجادييه، تم تجريده من رتبته بسبب انعدام النظام، تحديدا لأنه زار بافى بدون إذن. فضل ترك الجيش والعودة إلى فرنسا، فى محل ميلاده بريجور، لكى يدخل سلك الإدارة.

- ١٨٦٠: عند رجوعه إلى هوتفورت، مر بمسابقة محاسب ضرائب. عين موظفا بلا لقب للضرائب فى أكتوبر عام ١٨٦٠ ومحاسبا ١٨٦٣. شغل هذه الوظيفة فى توكان سانت ابر، جوميهاك لو جراند، دومن، مونتينياك سور فازار (دردونى).

- ١٨٧٠: انضم متطوعا أثناء حرب ١٨٧٠ كمتطوع فى فرقة الفرسان المتطوعين الجزائريين. فى الحياة المجنية عين محاسبا فى جومبيلاك لو جراند.

- ١٨٧٤: أنجب طفلا من مارى بيرونيت (موظفة ضرائب)، التى لم يتزوجها يوجين لوروا مدنيا إلا عام ١٨٧٧ . ولد ولدان آخران من هذا الزواج. إيفون البكر، طالب فى طب بوردو، مات فى سن مبكر. الثانى، روبيرت، أمضى كل حياته فى مونتينياك سور فيزار. والأخير ريتشارد، الأصغر، سيقتل أثناء الحرب العالمية الأولى.

- ١٨٧٧: اشتراكه فى الصراعات الجمهورية والفضيحة التى سببها زواجه المدنى بمارى بيرونى كلفته نقله إلى بوش دو رون، ثم فصله.

- ١٨٧٨: يعود بصعوبة إلى مصلحة الضرائب، يتابع عمله فى مونتينياك؛ ثم بوردو وهوتفورت.

- ١٨٨٨: نشر المجتمع الشعبى فى مونتينياك أثناء الثورة (١٧٩٣-١٧٩٤)، عمل معرفي يفحص فيه محاضر الجلسات.

- ١٨٨٩: نشر بحث عن أصل وقيمة ألقاب الأسماء فى مقاطعة مونتينياك القديمة فى بريجور، بحث معرفى آخر فى تاريخ بريجور.

- ١٨٩٥: لو مولان دو فران، روايته الحقيقية الأولى، ظهرت مسلسلة في لافونير دو لا دوردونى فى عام ١٨٩١، ونشرت فى كتاب لدى دريفوس ودالساس فى باريس. يروى حكاية طحان جمهورى يصبح هدفا لمضايقات البرجوازية، الإدارة والكنيسة.

- ١٨٩٩: جاكو المتمرد (الثائر) ظهرت فى سلسلة فى لا روفو دو باريس، ثم لدى جالمان ليفى عام ١٩٠٠. هذه الرواية عن ثورة الفلاحين ضد نبيل يحطمهم ويستغلهم – رواية كان يتمنى المؤلف أن يسميها "غابة باراد" وهى تعد أهم أعماله.

- ١٩٠١: نشر نيسات وميلو عند جالما – ليفى.

- ١٩٠٢: أحيل يوجين لوروا إلى المعاش وعاد إلى مونتينياك سور فازار.

- ١٩٠٦: نشر عند جالمان– ليفى رواية ناس أوبروك، كتبت عامى ١٨٩٧– ١٨٩٨ونشرت فى البداية فى لاروفو دو باريس عام ١٩٠٦.

ظهر أيضا كتاب أخبار: فى بلاد الأحجار، لدى فاسكال فى باريس.

وأخيرا نشر فى بارجيراك: السنوات الريفية فى بريجور، كتاب مقالات ظهرعام ١٩٠٣ و١٩٠٤ فى لو بوتى سنتر فى ليموج.

- ١٩٠٧: ٦ مايو: مات الكاتب ألبيروجوردى فى مونتينياك عن ٧١ عاما. دفن مدنيا، فقط العلم ذو الثلاثة ألوان كان يغطى تابوته. مفكر حر فرانك ماسونى، جمهورى عنيد وضد الكهنوت، مدافع عن ثورة ١٧٨٩، كرس يوجين لوروا كل رواياته لموطنه الأصلى بيريجور.

- ١٩١٢: نشر عدو الموت، فى روفو دو دو موند، ثم فى كتاب لدى جالمان – ليفى، تذكر قصتها برواية بلزاك: طبيب القرية،

وجدت طريقها للحياة عندما أعدها للتليفزيون روجير فرينى وروجير كاهان عام ١٩٨١.

- ١٩٢١: ظهور كتاب مدموازيل دو لا رالف لدى ريدير، بدأ عام ١٨٩٤، إتؤنف عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ ونشر مسلسلا فى لا بيتيت ريبوبليك عام ١٩٠٦. فى هذه الرواية وضع المؤلف كل حقده كطفل فقير ضد الأحكام المسبقة للطبقة، ويبدو أن داماس البطل هو صورته.

- ١٩٦٩: إعداد تليفزيونى لجاكو المتمرد أو (الثائر) كتبها ستيليو لورينزى الذى أسهم بشكل كبير فى انتشار الكاتب وخاصة رواية جاكو.

المترجمة فى سطور:

حياة الشيمى

مراسلة صحفية وناقدة ومترجمة عملت فى العديد من الجرائد والدوريات المصرية والعربية: جريدة السفير اللبنانية، والأهالى، وأخبار الأدب، وجريدة الخليج بالشارقة، وفلسطين الثورة، وفن، والكفاح العربى، وإبداع، والهلال.

ترجمت رواية "بطء المستقبل" تأليف باتريك لابار بالمركز الفرنسى للثقافة والتعاون (قسم الترجمة). واشتركت فى ترجمة موسوعة جامعة كل المعارف، ضمن المشروع القومى للترجمة، الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع المركز الفرنسى.

ترجمت "اليد الخفية للقوى" تأليف كريستيان هاربولوت. "وتكنيك الهجوم والحرب الاقتصادية" للمؤلف نفسه (تحت الطبع).

ترجمت رواية "شعر برنيس".

التصحيح اللغوى : شـــيرين صـــلاح
الإشـراف الفنـــى : حـســـن كـــامــل

كان چاكو فى الثامنة من عمره، حُكم على والده بالأشغال الشاقة ومات فى المعتقل بعد عدة أشهر. أقسم الصبى الصغير على الثأر لوالده من المتعجرف كونت نانزاك، المسئول عن القبض على والده. وبعد خمسة عشر عامًا ثار على البؤس والمعاملة السيئة التى تلحق به وبذويه، فجمع الفلاحين وأقنعهم بمقاومة طغيان الكونت.

تصميم الغلاف : حسن كامل

الإبداع القصصى